منهج النسوي التاريخي
فى كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى

د/ إمام الشافعي محمد حمودى سليمان
د / قاسم محمد غنيمات

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد النبي الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد ،،،

فتعد الدولة الخوارزمية من أهم الدول الإسلامية التي ظهرت على الساحة السياسية في المشرق الإسلامي، وقد اكتسبت هذه الأهمية من اتساع مساحتها، ومن جهادها ضد الغزو المغولي الكاسح للعالم الإسلامي، وكان السلطان جلال الدين منكبرتى آخر سلاطينها هو صاحب الفضل الكبير في جهاد المغول، وكان بمثابة سد منيع بين التتار والدويلات الإسلامية الأخرى في الشرق، وبعد مقتله أصبح الطريق مفتوحاً أمام جحافل المغول لإسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد .

ونظراً لأهمية شخصية هذا السلطان التاريخية، فقد حظى بكتابات الكثير من المؤرخين عنه، كان في مقدمتهم النسوى، الذي كتب عنه كتاباً سجل فيه حياته وأعماله وأصبح يحمل اسم "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى" وهو من الأخطاء الشائعة عن الكتاب، إذ أن الاسم الحقيقي له هو "سيرة الدولتين العلائية والجلالية" وهذا يعطي أهمية جديدة للكتاب بأنه مصدر هام لتاريخ الدولة الخوارزمية وصراعها مع المغول بوجه عام، وليس كتاباً خاصاً بسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى.

وبما أن للكتاب هذه الأهمية، فقد قمنا بدراسته دراسة تاريخية منهجية، تحدثنا فيها عن شخصية النسوى. مؤلف الكتاب. وتاريخ ارتباطه بخدمة سيده جلال الدين الذي كان يعيش في كنفه، وكذلك تاريخ تدوين النسوى لهذا الكتاب وأثر ذلك على ما جاء في الكتاب من مادة تاريخية. فقد كتب النسوى كتابا آخر باللغة الفارسية عن نفس الفترة ونفس الأحداث التي تحدث عنها في كتابه.

موضوع البحث: حمل اسم "نفثة المصدور" فكان من واجبات الدراسة الحديث عنه وإثبات صحة نسبته للنسوى والسبب في كتابه النسوى لنفس الفترة والأحداث في كتابين منفصلين، وبلغتين مختلفتين.

وقد ألقت الدراسة الضوء على طريقة تقسيم النسوى للمادة التاريخية الواردة في كتابه، وكذلك ذكر المصادر التي اعتمد عليها مثل المعاصرة والمشاهدة والمشافهة وغيرها من المصادر الأصلية التي رفعت من قيمة الكتاب التاريخية، مما جعل غيره من أعلام المؤرخين المسلمين، كالذهبي والنويري وابن خلدون وغيرهم يعتمدون عليه في تدوينهم لتاريخ الدولة الخوارزمية بوجه عام، ولسيرة جلال الدين منكبرتى بوجه خاص.

هذا, نرجو من الله تعالى أن نكون قد وفقنا فيما كتبنا، وأن ينتفع بهذا البحث كل من يقرأه، والله من وراء القصد والسبيل، وهو نعم المولى ونعم النصير .

عصر المؤلف

كان الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول فى حالة شديدة من الضعف والتخاذل، وكانت أهم الدول فى الشرق الإسلامي خاصة إيران الدولة الخوارزمية التى تنسب إلى مؤسسها " نوشتكين " الذى كان أول أمره عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة، ثم شغل منصب الطشتدار(*) إلى أن نصب حاكماً على إقليم خوارزم، وتلقب بلقب "خوارزم شاه" سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م، وصارت الدولة الخوارزمية تتسع شيئاً فشيئاً على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ـ ٦١٧هـ / ١١٩٩ـ ١٢١٩م) الذى كان يلقب بلقب قطب الدين قبل موت أبيه تكش، والسلطان محمد هو الذى كان يعاصر جنكيز خان، وكان شخصاً طموحاً شرهاً، تقوم سياسته مع الأمم الإسلامية المجاورة على الشقاق والنزاع، ومحاولة التهام هذه الدول الواحدة تلو الأخرى.(١)

وقد امتدت حدود الدولة الخوارزمية من العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً ومن سهل بحر قزوين شمالاً إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً، وكانت بموقعها الجغرافي وحدودها السياسية تسيطر على مفاتيح الطرق البرية للتجارة الآسيوية ... وأصبح سلطان علاء الدين خوارزم شاه لا يعلوه سلطان آخر فى العالم الإسلامي.(٢) بعد أن تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية صاروا يجاورون أملاك الخوارزميين، وأراد جنكيز خان أول الأمر أن يكون على علاقة طيبة بالسلطان محمد خوارزم شاه، ولكن تطور العلاقات بينهما من سيء إلى أسوأ، جعلته يترك سياسة المهادنة، ويسير بجيوشه الجرارة إلى البلاد الإسلامية.(٣)

فقد غضب جنكيز خان كل الغضب، لما لحق برعاياه من التجار المسلمين من قتل ومصادرة، وعول على الانتقام ووجد الفرصة سانحة لتحقيق سياسته الرامية إلى التوسع غرباً،

(*) الطشت دار : كانت وظيفة الطشت دار من الوظائف الصغرى، وصاحبها تابع للطشت خاناه السلطانية ... وسميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدي، والطشت الذى يغسل فيه القماش السلطاني. البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م. ص٢٣٢.

(١) د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع. ص٦١ ــ ٦٣.

(٢) د/ حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول. دار النهضة العربية ــ بيروت ١٩٧٠م. ص٣٦ ــ ٤٨.

(٣) د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ. ص٥٧.

بعد أن اتسعت دولته شرقاً، وهذا التوسع، يعني مهاجمته أراضي الدولة الخوارزمية والاستيلاء عليها، والانتفاع بمواردها الاقتصادية الهائلة من زراعة وصناعة وتجارة، فضلاً عن أن فتح الباب الشرقي لدولة الإسلام الكبرى، سيتيح الفرصة للمغول، لفتح المزيد من الممتلكات الإسلامية، لكن على الرغم من انتصارات المغول وتدميرهم بلاد الدولة الخوارزمية، إلا أن السلطان الخوارزمي لم يتوقف عن مقاومة المغول، وظل يحارب بجيشه جموع المغول، أينما وجدوا، لذلك اعتزم جنكيز خان التخلص نهائياً من السلطان الخوارزمي، حتى يضمن السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية. (١)

لم يبق خوارزم شاه ووالدته تركان خاتون. فى ذلك الوقت العصيب. على أى ملك قوي مستقل فى أى من الممالك التى فتحها السلطان، وباكتساح المغول للممالك الإسلامية وفرار السلطان محمد ووالدته أمامهم، لم يعد فى المشرق الإسلامي من له القدرة على الوقوف فى وجه المغول والدفاع عن الإسلام(٢) يقول ابن الأثير مؤكداً على ذلك(٣): "إن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع. وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها".

إن العيب الأكبر فى الدولة الخوارزمية كان فى علاء الدين خوارزم شاه نفسه فإن هذا الرجل لم يرزق شيئاً من مواهب رجل السياسة المنظم، وإنما كان مجرد كتلة من النشاط والاندفاع والتهور، يقود جماعات من القادة النهابين غير المنظمين، وكان باستطاعته أن يكون قائداً من أعظم قواد التاريخ الإسلامي.(٤)

عندما أحس السلطان خوارزم شاه بدنو أجله، وبلغه أن والدته قد أُسرت استدعى ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى(*) وابنيه الآخرين اللذين كانا حاضرين الجزيرة التى لجأ إليها :

---

(١) د/ عصام الدين الفقي: الدول المستقلة فى المشرق الإسلامي. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩٩م. ص١٧٢ـــ ١٧٨.

(٢) عباس إقبال : تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية. ترجمة د/عبدالوهاب علوب.ـــ المجمع الثقافي ــ أبوظبي ــ الإمارات العربية ٢٠٠٠م . ص١٢٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٨٢م. جـ١٢ ص٣٦١.

(٤) د/ حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ــ الزهراء للإعلام ــ القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٨٧م. ص٢٣٨.

(*) اختلف كثيراً فى وجه تسميته بمنكبرتى ومفهومها، ومازال الباحثون على اختلافهم، ولاسيما فى الحرف قبل الأخير هل هو نون أو تاء. فقد نقلها هوداس عن النسوى بالنون، وهي كذلك عند الجويني، وياقوت الحموي، وطبقات ناصرى ومسالك الأبصار، وأغلب المستشرقين. ومن كتبها بالتاء اعتبرها كلمتين : مونغو : الأبدي والخالد " بالمغولية " و"برتى" الماضي من الفعل بيرمك " الإعطاء بالتركية " فالمعنى : هبه الله. الجويني :

أزلاغ شاه وآق شاه ، وأعلن خلع ولده قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد، والبيعة بها لابنه جلال الدين، لأنه وجد فيه الشخص الوحيد الذى يستطيع مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية.[١]

فقد كان جلال الدين منكبرتى ملازماً لأبيه، قائداً شجاعاً قديراً على الحرب والقتال، أما إخوته فقد انغمسوا فى الترف والملذات ولم يشتركوا فى الحرب الطاحنة التى خاضها والدهم علاء الدين محمد وخصوصاً مع المغول. فلما ولى جلال الدين منكبرتى السلطنة، وجد أن معظم أراضيها قد سقطت فى أيدي المغول، وفقدت أهم مدنها وأخصب أراضيها وممتلكاتها ومزق الجيش الخوارزمي، وساح الجند فى الأرض وتفرقوا فى البلاد، ومع ذلك بذل كل ما فى استطاعته لاسترداد ملكه السليب.[٢]

كان على جلال الدين أن يحارب جميع الطوائف تقريباً. حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه، وحارب أخاه غياث الدين بير شاه [*] وأجبره على الدخول فى طاعته، ولكن هذا الأخير عاد وخان أخاه فى أحرج الظروف، إذ تخلى عنه عندما كان يحارب المغول، وهم أعدى أعدائه[٣]. وكان هذا سبباً فى هزيمته من المغول عند نهر السند [**]، ونجى من الموت فى هذه المعركة بأعجوبة بعد أن عبر الشاطئ الشرقي لهذا النهر سالماً مع أربعة آلاف رجل من أتباعه كانوا حفاة عراة، ولجأ إلى الهند , ولم يكن جلال الدين يبغى من لجوئه إلى الهند للإقامة فيها، وإنما كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ويتخذ من الهند قاعدة يعيد فيها تنظيم صفوف جنده، ويعود إلى بلاده، وقد واتته الفرصة للانتقام من المغول واستعادة ملكه السليب حين توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها.[٤]

عبر جلال الدين منكبرتى نهر السند فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وقصد إيران، ولكن

تاريخ فاتح العالم. جـ٢ ص٦٨ حاشية رقم (١).

[١] د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ. ص١٢٣.

[٢] د/ عصام الدين الفقى : الدول المستقلة فى المشرق. ص١٦٨، ١٧٨.

[*] غياث الدين بيرشاه : هو غياث الدين بيرشاه ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وكان السلطان خوارزم شاه قد نص فى ولاية عهده على أن يكون لولده غياث الدين ملك كرمان النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٤٤. بتصرف بسيط.

[٣] د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ. ص١٦٩.

[**] نهر السند : معناه السند روذ وهو من الملتان على نحو ثلاث مراحل وهو نهر عذب ــ يوجد بين دولتي باكستان والهند الآن. الحموى : معجم البلدان ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ١٩٧٩م، جـ٣ ص٢٦٨.

[٤] د/ عصام الدين الفقى : الدول المستقلة فى المشرق. ص١٨٣.

فى نفسه ضغينة وحقد على أولئك الذين مهدوا لوقوع هذه الكارثة بسبب تخاذلهم وضعفهم وتحريض المغول على مهاجمة أراضي الدولة الخوارزمية فى عهد أبيه علاء الدين محمد، فكان لا مفر لجلال الدين من أن يصطدم بهذه القوى المفككة،وأن يقوم بسلسلة لا نظير لها من المجازفات والمخاطرات،فاقتحم كرمان(*) وفارس وخضعت له أصفهان(**)، وبهذا أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، وعمل على بسط نفوذه على الأقاليم المجاورة، فاستطاع أن يخضع الخليفة العباسي، وينتصر على جيوشه، ولكنه بالرغم من هذا هادنه واصطلح معه ... وصار إلى جورجيا ففتحها، وسقطت فى يده عاصمتها تفليس سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م.(١) وفى عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م حارب الإسماعيلية وانتصر عليهم وأجبرهم على أن يلزموا قلاعهم، وفى سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م انتزع مدينة خلاط(*) من يد صاحبها الملك الأشرف موسى الأيوبي(**) الذى أسرع بتكوين حلف ضد جلال الدين، نجح فى إيقاع الهزيمة بجيوش جلال الدين بالقرب من خلاط، ولكن بالرغم من هزيمة جلال الدين، فقد سعى أمراء هذا التحالف ــ وفى مقدمتهم الأشرف ــ إلى عقد صلح معه، لكن كان لهزيمة جلال الدين تأثير كبير فى مجرى الأحداث، إذ أرسلت طائفة الإسماعيلية إلى المغول يطلعوهم على ما بلغ جلال الدين من الضعف ويحثوهم على غزو بلاده.(٢)

لما علم التتار بحال جلال الدين أخذوا يتتبعونه حتى وصل إلى قرية من قرى ميافارقين، فهجم عليه التتار فى هذه القرية، فهرب منهم إلى جبال الأكراد، وكان الأكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه، فأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر ما ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سراً: إنني أنا السلطان فلا تستعجل فى أمري، ولك الخيار فى إحضاري عند الملك

(*) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة، وهي بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. فى إيران حالياً ــ. الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص٤٥٤.

(**) أصفهان : مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصفهان اسم للإقليم بأسره وكانت مدينتها أولاً جيا، ثم صارت اليهودية ــ وهي بالجمهورية الإيرانية حاليا ــ المصدر السابق : جـ ١ ص ٢٠٦ .

(١) د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ. ص١٦٨ ــ ١٦٩.

(*) خلاط : هي البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة ... وهي قصبة أرمينية الوسطى ــ توجد فى الجمهورية التركية حالياً ــ. الحموى : معجم البلدان. جـ٢ ص٣٨١.

(**) هو الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، صاحب دمشق توفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م وعمره نحو من ستين سنة. المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق د/ محمد زيادة ــ لجنة التأليف والترجمة ــ القاهرة ١٩٥٦م، جـ١ قسم١ ص٢٥٦.

(٢) د/ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ. ص١٦٩ ــ ١٧٠.

المظفر شهاب الدين[*]، فيغنيك، أو إيصالي إلى بعض بلادي فتصير ملكاً. فرغب الرجل في إيصاله إلى بلاده، ومشى به إلى عشيرته، فتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الجبل لإحضار خيله، فبينما الرجل غائب إذ وافى شخص كردي من السفلة والأراذل، وبيده حربه، فقال للمرأة: ما هذا الخوارزمي، وهلا تقتولنه؟ فقالت : لا سبيل إلى ذلك، وقد أمّنه زوجي، وعرف أنه هو السلطان، فقال الكردي : كيف تصدقونه بأنه السلطان ؟ وقد قتل لى بخلاط أخ خير منه. فضربه بالحربة ضربة أغنت عن الثانية ... وذلك فى منتصف شهر شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة.[١]

لقد أوتى هذا السلطان من الشجاعة والقوة والصبر وخفة الحركة وقوة العزيمة مالم يتوفر إلا فى القليل من الناس، فحارب مع أبيه، وبعد أن تولى السلطنة ظل طوال حياته يتنقل من بلد إلى بلد يحارب ويقاوم الغزو المغولي المدمر، ويقاوم المسلمين الذين ناصبوه العداء. الكل يتآمر ضده : المغول والمسلمون وغير المسلمين القادة يتخلون عنه فى ميادين القتال، الجند ينسحبون من جيشه، البلاد مدمرة والحصون مهدمة، والمحاصيل تالفة والفلاحون تركوا الزراعة وهربوا من الحقول فى هذا العصر المضطرب، كل هذا والسلطان القوي يتحمل كل هذه الأهوال ويحارب ولا يتقاعس، ولا يعطي لنفسه قدراً من الراحة، وإذا كان السلطان عنيفاً مع خصومه، فهذه طبيعة العصر ــ الذى كان يحياه ــ العنف والقسوة[٢]. ولاشك أن هذه الأحداث قد انعكست على النسوى فى كتاباته.

النسوي سيرة ومسيرة

هو شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي المنشئ النسوى (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، وهو من كبار دولة الخوارزميين لجأ إلى الشام حين انهارت تلك الدولة أمام المغول فى إيران[٣]. وقد ذكر النسوى نسبه فى مقدمة كتابه فقال[٤]: "يقول الفقير إلى رحمة ربه ... محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشئ النسوى".

يتضح مما كتبه النسوى عن نفسه أنه ولد ونشأ بقلعة خرندز وهي قلعة من قلاع

---

[*] هو الملك المظفر محمود بن محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي، صاحب حماه وميافارقين توفى سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م. المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ١ قسم ٢. ص٣١٨.

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٨١ ــ ٣٨٥ بتصرف بسيط.

[٢] د/ عصام الدين الفقى : الدول المستقلة فى المشرق. ص١٨٨.

[٣] شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ١٩٧٩م. جـ٢ ص١٣٦.

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى. ص٣٣.

خراسان المنيعة وعلى مقربة من مدينة [نسا][*] التى انتسب إليها محمد النسوى[١]. يقول النسوى عن مسقط رأسه [٢]: "مرج سائغ من المروج المشهورة بقرب قلعة خرندز مسقط رأسي ومنشأ أساسي " ويقول أيضاً عن قلعة خرندز[٣]: "وهي من أمهات قلاع خراسان، ولست أعرف أول من ملكها من أسلافي. وقد اختلفت الأقاويل فيها على حسب الأهواء، وليس يمكنني أن أذكر منها إلا الصحيح وهم يعتقدون أنها فى أيديهم من بدء الإسلام".

ولم يكن النسوى يسكن قلعة خرندز فقط، بل كان هو مالكها ورثاً عن أجداده، وكانت له أملاك أخرى يقول عنها فى بعض مواضع كتابه[٤]: "مرحلة جرماني هي ضيعة من أملاكنا فيها عين ماء". وكان النسوى خيّراً أيضاً يقول عن زيارته الرسمية لقلاع آلموت[*] التابعة لطائفة الإسماعيلية بعد أن أرسله جلال الدين إلى هناك[٥]: "وكنت قد بنيت بقلعتي بخراسان خانقاه، وهممت أن أشتري من آلموت أغناماً أسبلها وقفاً على الخانقاه، إذ كانت الأغنام بخراسان أفنتها غارات التتار".

هذا وكان النسوى متولياً لبعض المناصب الإدارية الرسمية بنسا قبل أن يلتحق بخدمة جلال الدين يقول عن ذلك[٦]: "كان الملك نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر بن حمزة لما ورث نسا من ابن عمه ... استنابني فى أموره، وعول على فيما كان بصدد تدبيره".

ويتضح مما كتبه النسوي أنه التحق بخدمة جلال الدين منكبرتى بعد أن عاد إلى بلاده من منفاه فى بلاد الهند، فعهد إليه فيما عهد بوظيفة كاتب الإنشاء، ويقول عن ذلك[٧]: "وفى نهاره ــ يقصد السلطان جلال الدين. ذلك فوض إلى كتابة الإنشاء فتقلدتها لكن

(*) نسا : النسبة الصحيحة إليها نسائى وقيل نسوى أيضاً ... وهي مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان وبين مرو خمسة أيام. ياقوت الحموى : معجم البلدان. جـ٥ ص٢٨٢

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٣ مقدمة المحقق.

(٢) المصدر السابق : ص٧٩.

(٣) المصدر السابق : ص١١٦ ــ ١١٧.

(٤) المصدر السابق : ص٧٩.

(*) آلموت : قلعة شيدت فى الجبال التى فى الشمال الشرقي من قزوين، اشتهرت بأنها كانت مقر زعيم الحشاشين من عام ٢٨٣ إلى ٦٥٤هـ /٨٩٠ ــ ١٢٥٦م، ومعنى آلموت عش النسر أو مربي النسر ... وقد شيد هذه القلعة حسن الداعي إلى الحق العلوي عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م وظلت قائمة إلى ما بعد غزوة المغل واستخدمها الصفويون سجناً. دائرة المعارف الإسلامية ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع. مادة آلموت جـ٢ ص٥٩٧.

(٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٤٣.

(٦) المصدر السابق : ص١٨٧.

(٧) المصدر السابق : ص١٩٤ ــ ١٩٥.

على كُره مني لذلك، استحقاراً بها من قلة تجربة وعدم خبرة ... وقد حصل لي فى يوم واحد من منافع الإنشاء فوائده ... ما فوق ألف دينار ... فصرت أقاتل من يزاحمني عليها".

وذكر الجويني بأن النسوى كان المنشئ الخاص للملك غياث الدين بيرشاه شقيق جلال الدين منكبرتى، ولكن ذكره باسم نور الدين المنشئ وليس شهاب الدين المنشئ كما هو معروف عنه، وذكر أيضاً أنه كان منغمساً في الشرب والطرب وقدم إليه عدد من أئمة أصفهان ليرافقهم فى تحية السلطان جلال الدين عندما قدم إليها بعد عودته من المنفي فى الهند، لكنه كان فى هذا الصباح غارقاً فى الشراب، فكتب قصيدة وأرسلها إلى السلطان جلال الدين معهم، وذكر الجويني أيضاً بأن نور الدين المنشئ أحسن فى نظم هذه القصيدة التى كتبها فى حق السلطان.[١]

وربما تكون هذه القصيدة وما جاء فيها من مدح للسلطان جلال الدين من الأسباب التى جعلت السلطان يقرر بأن يصبح النسوى كاتبه الخاص، وكانت هذه القصيدة باللغة الفارسية ومطلعها على ما ذكره الجويني يقول: " تعالى أيتها الروح ثانية إلى العالم، فقد آن وقت السعادة والسرور" "بأبهة الخسرو الأعظم ألغ. العظيم. السلطان جلال الدين"[٢]. ويبدو أن النسوى كان شاعراً بالفعل وعلى معرفة كبيرة بالأشعار العربية أيضاً ويحفظ دواوين كاملة منه وذلك لكثرة استشهاده بالأشعار العربية. فى الكثير من مواضع كتابه، كما يبدو أيضاً أنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملاً أو أجزاء كثيرة منه، وذلك لكثرة استشهاده واقتباسه منه أيضاً.

ومنذ أن التحق النسوى بجلال الدين، أصبح فى خدمته إلى أن قتل، وكان كاتب الإنشاء له، وكان محظياً متقدماً عنده[٣]. أما وظيفة كاتب الإنشاء فكانت تدر دخلاً كبيراً على النسوى عبر عنه فى بعض المواضع بقوله[٤]: "برز المرسوم بالتوقيع فكتبتها ــ أى التظلمات وردها على الناس. وقد حصل لي فى ذلك النهار من منافع الكتابة ألف دينار وكسر، وأما ما دون ذلك فى سائر الأيام فمادة لا تنقطع". ولا يفيد هذا الكلام أن النسوى كان يتقاضى الرشوة من الناس، بل كان يأخذ هذه الأموال نظير حقه فى كتابة الأوراق، وذلك للأسباب الآتية :

١ــ ذكر آنفاً أن النسوى كان من الأثرياء ــ قبل التحاقه بخدمة السلطان ــ وكان يمتلك قلعة بحالها وضياعها فى مدينة نسا، فليس من المعقول أن يكون من طلاب الرشوة.

٢ــ أنه ذكر فى موضع آخر من كتابه ما يفيد صراحة أن هذه الأموال نظير الكتابة ليس إلا، يقول النسوى عن بعض العلاقات المالية بين السلطان جلال الدين وأحد أتباعه ــ وكان

---

(١) الجويني : تاريخ فاتح العالم. جـ٢ ص٥٦. بتصرف بسيط.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص٥٦.

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر– المكتبة الحسينية, القاهر, لم تذكر سنة الطبع. جـ٣ ص١٥١.

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٩٧.

يدعى شروانشاه[١] : "رده ــ أى السلطان ــ بالخلع والتشريفات، وأمر فكتبت توقيعاً له بتقرير ما تحت يده، وإسقاط عشرين ألف دينار من الإتاوة المقررة وأعطاني شروانشاه عن حق الكتابة ألف دينار".

٣ــ أن هذه الرواية لم يذكرها أحد المؤرخين عن النسوى، بل جاءت فى كتاب النسوى ذاته، فهو كاتبها، وهو يعلم أن غيره سيقرأها، فليس من المعقول أيضاً أن يذكر فى كتابه ما يسئ إلى شخصه.

ومن الأمور الهامة التى تستحق التسجيل عند سرد حياة النسوى أنه كان سفير هذا السلطان فى كثير من سفاراته إلى حكام المسلمين، ومن أبرزها تلك التى بُعث فيها إلى دعاة الإسماعيلية فى آلموت بوجه خاص[٢]. وقد أفرد النسوى فى كتابه عنواناً خاصاً لهذه السفارات قال فيه[٣]: "ذكر مهمات بعثت فيها إلى العراق". ومن هذه السفارات قوله: "إن حسام طغرل صاحب أرزن[*] ــ بديار بكر ــ كان سئل السلطان على لسان المتوكل به أن يبعث ثقة من ثقاته إليه ليكلمه، فأمرني السلطان بالحضور إليه فمضيت واجتمعت به"، وليس هناك شك فى أن ذلك إن دل على شئ فإنما يدل على مبلغ ما كان يتمتع به النسوى من ثقة لدى جلال الدين[٤]. كما أرسل النسوى سفيراً أيضاً من قبل السلطان جلال الدين إلى الأمراء الأيوبين فى الشام[*] ليستنصر بهم على التتار عندما بدأت تدور عليه الدائرة

ولعل أخطر المناصب التى تولاها النسوى كان منصب الوزارة فى مدينة "نسا" وقد شرط عليه السلطان عندما قلده هذه الوظيفة أن يبقى إلى جانبه وأن ينيب عنه فيها أحد ثقاته. وقد جعل النسوى لهذا الأمر عنواناً خاصاً فى كتابه سماه "ذكر تقليدي وزارة نسا"، يقول فى ثناياه[٥]: "وردت من نسا ... فارتقيت من حالة إلى أخرى، إلى أن تقلدت كتابة الإنشاء ... إلى أن فوض إلى وزارتها ــ يعني مدينة نسا ــ مشروطة بأن لا أفارق الباب، بل استنيب فيها من أثق به، ففعلت".

ومنذ أن التحق النسوى ببلاط جلال الدين منكبرتى وتولى فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م

---

(١) المصدر السابق : ص٢٩٠.

(٢) المصدر السابق : ص٢٤ مقدمة التحقيق.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٣٦.

(*) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينية ــ توجد بالجمهورية التركية حالياً ــ. الحموى : معجم البلدان. جـ١ ص١٥٠.

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٢٣.

(*) المصدر السابق : ص٣٧٢.

(٥) المصدر السابق : ص٢٥١ ــ ٢٥٢.

منصب منشئه الخاص، وهو يعيش فى كنفه حتى قتل جلال الدين فى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م. وعندما فر جلال الدين من أذربيجان(**) إلى الجزيرة الفراتية، ابتعد عنه النسوى الذى كان قد ذهب برسالة إلى الملك المظفر صاحب ميافارقين وتعرض لشتى ضروب المحن واستقر به الحال فى ميافارقين.

فى سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م حيث اطلع على تفاصيل مصرع السلطان. وقد عاش محمد النسوى حتى عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م ولا نعرف ماذا حدث له بعد ذلك.(١)

من هذا كله يتضح لنا كيف أن النسوى كان ملازماً لجلال الدين منكبرتى قضى معه الشطر الأكبر من حكمه، واستمر ملازماً له حتى آخر أيامه، وكان موضعاُ لثقته، يشاوره فى كل أمر، ويعهد إليه بكل ما هو خطير من أمور دولته. ولنا بعد ذلك كله أن نحكم على أهمية ما كتبه النسوى عن حياة ذلك السلطان الذى أرخ لـــه، ومن حيث التعرف على مجريات الحوادث التاريخية وأخذها من مصادرها الأولى. وإذا كان الحذر لابد أن يكون رائدنا: "إذا ما اعتمدنا على مرجع لمؤلف معاصر عاش فى كنف من أرخ لهم. فإن هذا الحذر لابد أن يقل إذا ما علمنا أن النسوى قد كتب هذا الكتاب الذى أرخ فيه لجلال الدين منكبرتى بعد وفاة هذا السلطان بعشر سنين، مما يجعلنا نطمئن إلى أنه لم يكن تحت تأثير معين وهو يكتب عنه وإن كان هذا لا ينفى أن كتاباته تحمل فى طياتها، وبطريقة لا شعورية، كل معاني الولاء لذلك السلطان الذى أظله برعايته طيلة فترة حكمه على وجه التقريب.(٢)

تدوين النسوى لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى

عندما جاءت أواخر القرن السادس الهجري، وجاء النصف الأول من القـــرن الســـابع أصاب التاريخ نوعاً من اليقظة وعاد المؤرخون إلى التكاثر الواضح، ولعل السبب فى ذلك هـــو اليقظة السياسية الحضارية التى حلت بالمشرق الإسلامي من جراء التحدي الصليبي من جهة، ثم التحدي المغولي من الجهة الأخرى، فكان ظهور الزنكيين والأيوبيين أولاً، ثم ظهور الخوارزميين جواباً على التحديين يستحق التسجيل.(٣)

فقد عالج تاريخ الغزو المغولي للبلاد الإسلامية عدد غير قليل من المؤرخين المســـلمين وغير المسلمين، منهم المعاصر، ومنهم من كتب عن هذه الحقبة التاريخية بعد فـــوات حـــوادث

(**) أذربيجان : هو إقليم من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حده من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبـــل، وهو إقليم واسع ومن مشهور مدائنها تبريز. الحموي : معجم البلدان. جـــ١ ص١٢٨.

(١) عباس إقبال : تاريخ المغول ص٤٦٥.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٤ مقدمة التحقيق.

(٣) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون. جـــ١ ص٢٧٤.

الغزو بفترات طويلة أو قصيرة، ولكل أهميته، ولكل قيمته التاريخية، وإن اختلفت وجهات نظر بعضهم عن البعض الآخر تبعاً لاختلاف أجناسهم وميولهم السياسية والدينية، وكتب عن المغول والخوارزميين مؤرخون صينيون(*)، وكتب عنهم مؤرخون من الفرس، وكتب عنهم مؤرخون من الترك، وكتب عنهم كذلك مؤرخون من العرب.(١)

ومن هؤلاء المؤرخين شهاب الدين النسوى الذى صاغ ذكرياته ومأساة سيده فى كتاب بالغ الألم يسميه أبو الفداء باسم " تاريخ صدور التتر " ولكن الاسم الذى تذكره المصادر الأخرى هو: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى. وقد ذكر فيها أخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين كما عرفها مؤكداً أن التاريخ هو "الخُبر(*) لا الخبر وأين العيان من اقتفاء الأثر؟"(٢).

وهناك اختلاف كبير بين المؤرخين فى تحقيق اسم الكتاب الذى كتبه النسوى عن جلال الدين منكبرتى، فقد ذكره صاحب كتاب كشف الظنون بين أصحاب كتب السير فقال(٣): "سيرة الجلال خوارزم شاه"، وقال عنه فى موضع آخر(٤): "تاريخ النسوى الذى يذكر فيه أخبار خوارزم شاه". فى حين ذكره النويرى باسم آخر قال عنه(٥): "أوردنا من أخبار ملوكها. أى الدولة الخوارزمية ــ ما أورده المنشئ فى تاريخه الجلالى". وجعل له أبو الفداء اسماً آخر هو "تاريخ ظهور التتر" تصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوى المنشئ(٦) كما ذكر آنفا. بل هناك من جعل له اسماً مغايراً لكل ما سبق مثل ابن أيبك الدوادار الذى يقول فى مقدمة ترجمته لجلال الدين

(*) من أهم الكتب الصينية التى تناولت تاريخ المغول كتاب [التاريخ السرى] وهو عنوان من وضع المحققين الصينيين وهو كتاب كتب لتعزيز سمعة جنكيز خان، وهو ملئ بالملاحم والأساطير، لكن بعضاً منه تؤيده مصادر صينية، ويبدو أن مادح جنكيز خان الذى ألف كتاب[التاريخ السرى]ربما كان مسيحياً من الطائفة النسطورية. مايك إدواردز : جنكيز خان سيد المغول. مجلة الثقافة العالمية. مجلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة. الكويت. عدد ٨٣ ص٧٥ ــ ٨٠.

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢١. مقدمة التحقيق.

(*) الخبر : ما أتاك من نبأ عمن تستخبر ... والخبر النبأ والجمع أخبار. ابن منظور : لسان العرب ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ لم تذكر سنة الطبع. باب الخاء فصل الراء.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون. جـ٢ ص٤٠٧ ــ ٤٠٨.

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون. دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٩٢م. جـ١ ص٣١٨.

(٤) المصدر السابق : جـ١ ص٣٠٨.

(٥) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب. تحقيق د/ سعيد عاشور. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م. جـ٢٧ ص٣٠٠.

(٦) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر. جـ٣ ص١٤٧ ــ ١٤٨.

منكبرتى[١]: "قال المنشئ فى تاريخه وهو مصنف سيرة السلطان علاء الدين وولده جلال الـــدين" أى أن الكتاب يحمل اسم سيرة السلطان علاء الدين وولده جلال الدين، وليس سيرة جلال الـــدين فقط، وهذا ما أكده أحدث بحث عن هذا الموضوع.

كان أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، أبرز المؤرخون العـــرب، الـــذين أرخوا للحروب الصليبية، وذلك فى كتابه "الروضتين" مع ذيله، وكانت مشـــاعر هـــذا المـــؤرخ العظيم وتقديره، أن المسلمين فى أيامه كانوا يتصدون لعدوين متحالفين خطيرين، هما: المغـــول والصليبيين. لذلك أقدم على تهذيب كتابه "الروضتين" بكتاب سماه "عيون الروضتين" ووجد أمامه، فى الوقت نفسه كتاب "سيرة الدولتين العلائية والجلالية" لمحمد بن أحمد النسوى، الذى عاش فى ظل هذه الدولة، وكان من أبرز المسؤولين فيها، وألف على هذا الأساس كتابه "نزهة المقلتين فى سيرة الدولتين العلائية والجلالية".[٢]

وقد نشر الكتاب أولاً فى باريس عام ١٨٩١م، ثم فى القاهرة عام ١٩٥٣م تحت عنوان " سيرة جلال الدين منكبرتى " ولم يكن تغيير العنوان هو التشويه الوحيد الذى لحق بالكتاب، بـــل كانت هناك تصحيفات كثيرة جداً، واعتماداً على كتاب أبى شامة، يكون قد أعيد عنوان الكتـــاب إلى أصله، وأزيل ما به من تصحيف، وقد نشر هذا الكتاب " نزهة المقلتـــين " اعتمـــاداً علـــى مخطوطتين فى تونس والمغرب.[٣] هذا وللنسوى الزيدرى كتاب آخر بعنوان: (نفثة[*] المصدور فى فتور زمان الصدور وزمان صدور الفتور[**]) كتبه بالفارسية سنة ٦٢٢هـــ / ١٢٢٥م فـــى انقراض دولة الخوارزميين وهجمات المغول عليها، وهذا الكتاب لا يقـــل ألمـــاً عـــن الكتـــاب السابق.[٤]

أما عن كتاب النسوى (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى) أو (سيرة الدولتين العلائية

---

[١] ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر.تحقيق د/ سعيد عاشور ــ المعهـــد الألمـــاني للآثـــار ــ القـــاهرة ١٩٧٢م. جـــ٧ ص٣٠٣.

[٢] أبو شامة : نزهة المقلتين فى سيرة الدولتين العلائية والجلالية. تحقيق د/ سهيل زكار. ــ دار رغداء ــ دمشـــق ــ سوريا ــ الطبعة الأولى٢٠٠٨م. ص٣ مقدمة المحقق.

[٣] أبو شامة : نزهة المقلتين فى سيرة الدولتين العلائية والجلالية. ص٦ ــ ٧ مقدمة المحقق.

[*] النّفث : أقل من التفل لأن التفل لا يكون إلا معه شئ من الريق. والنفث : شبيه النفخ ... وفى المثـــل : لابـــد للمصدور أن ينفث وهو ينفث عليّ غضباً أى كأنه ينفخ من شدة غضبه. ابن منظور : لسان العرب. باب النون فصل الثاء.

[**] سوف تتناول الدراسة. لاحقاً. الحديث عن هذا الكتاب بالتفصيل وذلك نظراً لارتباطه ارتباطاً وثيقـــاً بالكتـــاب موضوع الدراسة.

[٤] شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون. جـــ٢ ص٤٠٧ ــ ٤٠٨.

والجلالية) ــ موضوع البحث ــ والذى كتبه باللغة العربيه، فيستدل من مقدمته أن المؤلف بعد انتهائه منه واطلاعه على المعلومات القيمة الواردة فى الكامل لابن الأثير(***) عن الخوارزميين والسلطان جلال الدين، ونظراً لأن الكتاب يتوقف عند سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣م أى تاريخ مقتل السلطان جلال الدين، فإن ابن الأثير لم يطلع على نهاية عمله(****)، فأشار النسوى إلى ضرورة تدوين كتاب خاص عن سيرة جلال الدين لإكمال ما بدأه ابن الأثير، والرد على الحكايات الملفقة التى تناقلها الناس عن حياة مخدومه. وكان هذا هو كتاب سيرة جلال الدين ــ أو سيرة الدولتين ــ الذى يتضمن تفاصيل الفترة الأخيرة من حكم الخوارزميين، وبداية خروج المغول، والأحداث الخاصة بالسلطان جلال الدين ومعاركه، وهو يعد أيضاً من أهم مصادر تاريخ عصر اجتياح التتار.(١)

كان النسوى يقصد من تأليف كتابه سيرة جلال الدين منكبرتى الحديث عن حياة سيده بالتفصيل، أما ما ذكره من سيرة والده السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه وغيره من الموضوعات الواردة فى الكتاب، فكان ذلك من باب الاختصار، وربط الأحداث بعضها ببعض، وكان النسوى ينص على ذلك صراحة بل كان يجعل لذلك المقصد عناويناً يدلل بها على ذلك من هذا قوله فى بعض عناوين الكتاب(٢): "ذكر نُبذ مما جرى بخراسان بعد السلطان مجملاً ولا حاجة إلى التفصيل، إذ الأحوال تشبه بعضهاً بعضاً وليس إلا عموم القتل وشمول التخريب" ويقول فى موضع آخر(٣): "حيث أوردنا نبذاً من أحوال السلطان محمد فى شرح مبدأ التتار، نسوق باقى أخباره إلى أن نفذ فيه محتوم القضاء، وأذنت أيامه بالانقضاء، ثم نفضى الحديث إلى الغرض المقصود من الأخبار الجلالية ــ نسبة إلى جلال الدين ــ إن شاء الله تعالى ".

إن ظاهرة كتابة السير(*) للحكام لم تظهر إلا فى العهود التى ظهر فيها حكام بارزون لا

(***) هو الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرى ولد سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وتوفى بالموصل سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر. جـ٤ ص١٥٤.

(****) يقول ابن الأثير عن خاتمة جلال الدين منكبرتى: "وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرون وستمائة لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، والله المستعان". الكامل فى التاريخ. جـ١٢ ص٥٠٤.

(١) عباس إقبال : تاريخ المغول. ص٤٧٦.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١١٦.

(٣) المصدر السابق : ص ٤٨.

(*) ليس فى الفروق اللغوية ما يبين الفرق بين السيرة والترجمة، لكن جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكتّاب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة. محمد عبد الغني

يخجل الكاتب من أن يخصص لتاريخ حياتهم سيرة يسطرها للناس، فلقد كان فى مثل هذا النوع من التاريخ للأفراد من الحرج، يأتي من أن السيرة الوحيدة الجديرة بالرواية فى القناعة العامة هي السير النبوية التى لا يمكن لأي سيرة أن تقارنها فى هذا الشأن[١]. فقد اختفت فى القرن السابع والثامن والتاسع الهجري ظاهرة السير للأموات السالفين، وحلت محلها سير الأحياء ــ والأموات. من الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسي الدول، فكان منهم محمد بن أحمد النسوى الذى كتب "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى" آخر ملوك الدولة الخوارزمية[٢].

لكن كتابة التراجم والسير عند المسلمين لم تحفل بأي حال من الأحوال بـ " نظرية البطل فى التاريخ " كما حفل بها مؤرخو الإغريق والرومان، حيث ردوا إليها كل مسيرة التاريخ، ذلك أن البطل فى التأريخ الإسلامي لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لحركة الزمان والمكان.[٣]

أما عن وقت تدوين النسوى لسيرة جلال الدين، فإن النسوى يقول عن حصار التتار لخوارزم سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م[٤]: "فأول من وصل منهم باجيك بك فى عسكر كثيف ثم بعده ابن جنكيز خان أوكطاي وهو الخاقان يومنا هذا".

وبما أن أجتاي Ogotai بن جنكيز خان حكم من ٦٢٤ــ ٦٣٩هـ / ١٢٢٧ ــ ١٢٤١م، يتضح من ذلك أن النسوى قد كتب سيرة جلال الدين بعد وفاة جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، بل بعد وفاة جلال الدين نفسه سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م، ولهذا الأمر خطورته عند الحكم على قيمة الكتاب نفسه كمصدر تاريخي، من حيث إدراك تحرر المؤلف إلى حد ملحوظ ــ رغم ولائه لمن سرد حياته. من قيود الكتابة[٥]. فمن الأمور المؤكدة فى زمن تدوين النسوى لهذا الكتاب أن عملية التدوين تمت بعد عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م، فقد ورد فى كتاب النسوى ما يؤيد ذلك

يقول النسوى عن هجوم التتار الأخير على السلطان جلال الدين منكبرتى قبل مقتله[٦]: "لما رأى السلطان أطلاب[**] التتار مجده بتتبعه، أمر أورخان[*] أن يفارقه بمن معه

حسن: التراجم والسير – دار المعارف، مصر ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٠م. ص٢٨ بتصرف بسيط.

[١] شاكر مصطفى : التاريخ العربي. جـ١ ص٣٦٨.

[٢] محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير. ص٣٠.

[٣] د/ عبد العليم خضر : المسلمون وكتابة التاريخ ــ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ــ فيرجينيا ــ الولايات المتحدة الأمريكية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣م. ص٢١٩.

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٧٠.

[٥] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٧٠. حاشية رقم (٥).

[٦] المصدر السابق : ص٣٧٨.

[**] الطلب : الفرقة من المماليك خاصة بأمير من الأمراء، وجمعها أطلاب وعدد عسكره من ٧٠ ــ ٢٠٠ فارس

من العسكر ليتبع التتار سواده ويخلص هو بمفرده. ولقد أخطأ فى ذلك، فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان وملكها زماناً إلى أن قصدها التتار وأورخان إلى سنتنا هذه، وهي سنة تسع وثلاثين وستمائة، باق محبوس بفارس".

أما العبارة الواردة آخر الكتاب والتى تقول : " نجزت. أى هذه السيرة ــ فى سنة سبع وستين وستمائة[١] " فإنها لا تعني أن النسوى قد توفى بعد عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م، إذ لم يقم دليل أكيد على ذلك، بل يبدو أنها عبارة الناسخ لهذا الكتاب بعد ذلك.

هذا وقد نشر المستشرق هوداس O. Houdas وكان أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. كتاب "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى" سنة ١٨٩١م عن نسخة خطية محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. وكأنما أراد هوداس أن يعم النفع من وراء هذا الكتاب بين من يجهلون اللغة العربية فترجمه إلى اللغة الفرنسية سنة ١٨٩٥م[٢]، كما قام الدكتور حافظ أحمد حمدي بإعادة نشر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، بتحقيق جديد فى القاهرة سنة ١٩٥٣م، وهي الطبعة التى اعتمدت عليها فى إجراء هذه الدراسة على الكتاب.

بين كتابي نفثة المصدور وسيرة السلطان جلال الدين

هناك اسم آخر هو الزيدري نور الدين محمد الخراساني المنشئ (المتوفى سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) يشتبه الباحثون[*] في أن يكون هو النسوى السابق نفسه بسبب تطابق الاسم والعمل وسنة الوفاة، ثم التأليف بألم واضح عن سقوط الخوارزميين ... وكتابه التاريخي يحمل اسم : نفثة المصدور في فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور. وقد كتب باللغة الفارسية [٣] والزيدري هذا لا نعرف من اسمه إلا أنه محمد الزيدري الخراساني، على أن أبحاث العالم الإيراني محمد عبد الوهاب القزويني (المتوفى سنة ١٩٤٩م) أكدت أن الاسمين لمسمى واحد عرف في إيران بالزيدري وفي الشام وحلب خاصة بالنسوى حيث توفى سنة ٦٤٧هـ/

فى ميدان القتال، ثم صار يدل على الكتيبة. محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية. ص١٠٨.

[*] كان أورخان أحد الأمراء الخوارزميين الذين انفصلوا عن غياث الدين بيرشاه شقيق جلال الدين منكبرتى وانضموا إلى خدمة جلال الدين، وذلك قبل هروبه إلى الهند. النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٦٤.

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٨٦.

[٢] المصدر االسابق : ص٢٦. مقدمة المحقق.

[*] لم يشر الدكتور / حافظ حمدي ــ محقق كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ــ من قريب أو بعيد إلى أن النسوى له كتاب آخر عن نفس الفترة يحمل اسم نفثة المصدور .

[٣] شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون. جـ٢ ص١٣٦.

١٢٤٩م.[١]

إن محتويات ذلك الكتاب تعود لوقائع أحوال السلطان جلال الدين منكبرتي آخر الخوارزميين[٢]. وقد ظهر هذا الكتاب في طهران سنة ١٩٢٩م باللغة الفارسية، كان قد هيأه للنشر رضا قلى خان هدايت، اعتماداً على مخطوطة مفقودة اليوم، ونسب تأليفه خطأ إلى شخص مزعوم هو محمد زيدرى. وقد دلل العالم الإيراني محمد القزويني على أن المصنف إنما هو مذكرات النسوي. كما ذكر آنفاً.[٣]

يقول القزويني عن ذلك[٤]: "وضح لي بالبرهان أن مؤلف الكتاب (نفثة المصدور) هو نفسه محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشئ النسوي مؤلف الكتاب المعروف بـ"سيرة جلال الدين منكبرتى" الذي طبع في باريس عام ١٨٩١م، وذلك لأن كلا المؤلفين عبر في كلا الكتابين عن نفس تلك الوقائع والتنقلات والحوادث، وأنه في بعض المواضع. علاوة على اتحاد أصل الموضوع نفسه ــ فإن عبارة كلا الكتابين واحدة أيضاً مع تفاوت في المفردات العربية والفارسية، كأن واحد من الكتابين قد ترجم عن الآخر، علاوة على هذا فإنه في كثير من الأوقات قد ورد في كلا الكتابين نفس تلك الأشعار والأمثال والآيات في موضع واقعة معينة".

من مجموع هذه القرائن يتضح بشكل قاطع ويقيني أنه شخص واحد الذي يتحدث في كلا الكتابين وليس شخصين، وهو شخص واحد الذي يتحدث عن وقائعه الشخصية في كلا الكتابين وليس شخصين مختلفين أيضاً؛ وكنموذج على اتحاد الوقائع الشخصية في كلا الكتابين نضرب المثال التالي والباقي يجب أن يتضح على هذا الأساس. في (نفثة المصدور) يحكي مؤلف الكتاب أنه بعد العودة من السفر إلى بلاط آلموت حيث كان السلطان جلال الدين قد كلفني بذلك، التحقت بمعسكر السلطان في تبريز[*]، وفي تلك الأثناء وصل الخبر إلى السلطان أن طلائع جيش التتار قد وصلت إلى زنجان[**]، فتحرك السلطان بسرعة من تبريز إلى صحراء مغان التي كان جيشه قد تفرق في نقاط مختلفة فيها ليقضي الشتاء، وكنت أنا أيضاً مرافقاً للسلطان، حينما وصلنا

---

[١] المرجع السابق : جـ٢ ص٤٠٧.

[٢] زيدري نسوى : نفثة المصدور ــ توس ــ طهران ــ الطبعة الأولي ٢٠٠٢م. ص٤٢.

[٣] بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. ترجمة / صلاح الدين هاشم. المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت ١٩٨١م. ص١١٠.

[٤] زيدري نسوى : نفثة المصدور. ص٤٢.

[*] تبريز: مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وهي أشهر مدن أذربيجان. الحموي: معجم البلدان. جـ٢ ص١٣ .

[**] زنجان : بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين. المصدر السابق : جـ٣ ص١٥٢ .

إلى محاذاة قلعة شيركيوت التي تقع على تل في صحراء مغان أودع السلطان أحد أسرى التتار الذي كان قد أسره من الحروب السابقة، وكان قد أعطاه الأمان على روحه وكان دائماً ملازماً لركابه، والآن خوفاً من أنه ربما يفر بسبب قرب أبناء جنسه في أذربيجان، ويصل بنفسه إليهم ويعلمهم بقلة جيش السلطان وتفرق جنوده في الأقطار، وهكذا رأى المصلحة أن يحبسه مؤقتاً في واحدة من القلاع، ولهذا سلمني أنا (يعني مؤلف الكتاب) ذلك الأسير وقال إحمل هذا الشخص إلى قلعة شيركيوت وسلمه لوالي القلعة، وقل له أن يقيده، فذهبت إلى القلعة واتممت هذه المهمة وقضيت في هذه المأمورية حتى منتصف الليل، ولأن وقت العودة كان قد تأخر فقد قضيت الليلة في القلعة، وفي صباح الغد رجعت إلى المعسكر ورأيت الخيمة والمعسكر خالي من السلطان ومرافقيه وكانت المؤن والآلات منثورة وكلاب الصيد مربوطة على باب الخيام والصقور جالسة في أماكنها فعلمت أن الحادثة السيئة التي كنت لفترة طويلة قد أعطيت احتمال لوقوعها قد وقعت أي أن جيش التتار قد هجم فجأة على مخيم السلطان، ولكن إلى ماذا انتهى الأمر وهل السلطان قد نجا بنفسه سالما أو هل أصيب بأذى لم أكن أعرف. فامتطيت أنا أيضاً بسرعة الجواد السريع الذي لدي إلى نهر أرس(*)، وفي نهاية الأمر علمت أنه معافى ويقيم بسلام في أذربيجان.(١)

وقد وردت مثل هذه الرواية أيضاً في كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، يقول النسوى عنها(٢) : " كان قد أحضر شخص تاتاري أبقى عليه السلطان وحده فلم يقتله، فلما نزل على قلعة شيركيوت، أمر بالقبض عليه احترازا من أن يقفز إليهم في ذلك الوقت فيعلمهم بحال السلطان وتفرق عسكره. وكان أهله وولده عندهم في خوارزم. وسلمه إليّ وقال لي : اصعد به إلى قلعة شيركيوت فقيده بها وسلمه إلى من هو الوالي عن شرف الملك بها، ففعلت، وهجم الليل، فبت معه في القلعة ... فلما أصبحت، قصدت المعسكر فوجدت الخيام عنهم خالية، والأمتعة مطروحة، والفهود مربوطة، فعلمت أن المحذور قد وقع، وأن السلطان قد كُبس ليلاً، ولست أعلم بسلامته، ولم أشك أن قلعة شيركيوت لا تثبت على حصار التتار، فطفقت أتبع السلطان والتتار وراءه " .

هذه هي الرواية مع اختلاف في التوسع والإيجاز بين الكتابين في نفس الموضوع، حيث إن كلا المؤلفين قد نقل في كل واحد من الكتابين المذكورين مذكراته الشخصية في هذه الواقعة الخاصة. نلاحظ الآن أن هذا الأمر لا يخرج من أمرين : إما أنه يجب الفرض أنه شخص واحد في الكتابين اللذين من تأليفه هو، يتحدث عن وقائعه الشخصية، أو أنهم شخصين مختلفين

(*) نهر أرس : أو الرس نهر بين أزربيجان وآران. الحموي : معجم البلدان جـ ١ ص ١٣٦ .

(١) زيدرى نسوى : نفثة المصدور. ص١٣١.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤.

أصحاب تأليفين مختلفين وأن هذا الاتحاد للوقائع الشخصية في مجال كلا الشخصين هو من قبيل التصادف وتوارد الأفكار ؛ بناء على الفرض الأول يتضح أنه لا يلزم الحذر وهذه الفقرة هي من الأمور العادية جداً بأن يكرر مؤلف في تأليفاته المختلفة نفس تلك الوقائع والحكايات بعبارات مختلفة، ولكن بناء على الفرض الثاني سوف يلزم فرض وجود شخصين، وبالضرورة أن يحدث الكثير من التواردات والتصادفات العجيبة في زمان واحد ومكان واحد وظروف وأحوال واحدة. لكن اجتماع مجموعها معاً عادة أمر مستبعد جداً بل إنه بدون شك هو من المستحيل : فمثلا أولا يجب أن يكون الشخصان اسم كلاهما محمد منشئ (حيث يصرح كلا الكتابين أن اسم مؤلفهما هو هذا) ويكون كلاهما أيضا كاتب للسلطان جلال الدين ويكون كلاهما قد كلف من جانبه بالسفر إلى بلاط آلموت وبعد ذلك (وهذا أعجب من الكل) حينما يصل السلطان إلى محاذاة شيركيوت في صحراء مغان يعطي لكل واحد منهما أسيراً تتاريًا ليحمله إلى القلعة المذكورة ليسلمه لواليها. وكلاهما أيضا أخذ أسيره إلى القلعة وسلمه للوالي، وكلاهما قضى نصف الليلة في القلعة، وكلاهما في صباح الغد يرجع إلى معسكر السلطان ويرويا أن الخيام خالية من السلطان ومرافقيه. والأعجب من كل هذا أن كل واحد من هذين الشخصين بعد ذلك يؤلف كتاباً ويورد فيه جميع جزئيات هذه الوقائع بعينها وبدون ذرة اختلاف ويشرحونها في كتبهم بدقة بدون أن يذكر أي واحد منهما اسم الآخر أو يشير إلى الآخر الذي كان شريكه في كل المصائب. وكان على نفس الخط معه في جميع نقاط الطريق من آلموت وتبريز ومغان ومصاحباً له في كل موضع. فلم يتحدث عنه بالإشارة لا تصريحاً ولا تلويحاً ولا تعريضاً ولا كناية. البديهي أن هذا الفرض عادة هو من المحال وأي شخص لو يكون هدفه المزاح أو المكابرة لا يرضخ لقبول هذا الاحتمال الوهمي.[1]

أما عن الفرق بين الكتابين، فإن المؤلف قد ذُكر في كلا الكتابين باسم (محمد منشئ) مع فرق أنه في كتاب " السيرة " قد امتد نسبه حتى الجيل الثالث، واكتفى في " نفثة المصدور " بنفس ذلك التعبير " محمد منشئ ".[2]

من خلال ما سبق يتضح أن مؤلف كلا الكتابين هو النسوى وليس غيره، لكن المصادر التاريخية لم تذكر السبب الذي من أجله قد دون النسوى سيرة السلطان علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي مرتين، إحداها باللغة العربية وحملت اسم سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ــ أو سيرة الدولتين العلائية والجلالية. والثانية باللغة الفارسية وحملت اسم نفثة المصدور، ويمكن إرجاع السبب في ذلك إلى أنه قد دون سيرة علاء الدين وابنه جلال الدين

---

[1] زيدرى نسوى : نفثة المصدور. ص ٤٢ ــ ٤٣.

[2] المصدر السابق : ص٤٢.

بالفارسية أولاً، ثم ظن أن هذا الكتاب قد فُقد منه مع ما فقد من كتبه الأخرى[*] في مكتبته الخاصة، فأعاد تدوين سيرتهما باللغة العربية، بعد أن استقر في بلاد الشام ذات اللسان العربي في أخريات أيامه، وهو لا يعلم أن كتابه نفثة المصدور، لم يفقد بل وصلت إلينا نسخة منه، لكن من العجيب أيضاً أن النسوى، في كتابه "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى " لم يشر من قريب أو بعيد إلى أن له كتاباً آخر عن نفس الفترة التي تحدث عنها في كتابه " السيرة".

الخطة العامة للكتاب

لم يتبع النسوى في كتابه " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى " الطريق الذي كان يتبعه المؤرخون المسلمون المعاصرون له من حيث سرد الحوادث التاريخية وتدوينها حسب ترتيبها الزمني، بل كان يعمد إلى معالجة الموضوعات التي اهتم بالكتابة عنها دون أن يتقيد بترتيبها زمنياً، وبذلك اختلفت كتاباته اختلافاً بيناً واضحاً من حيث الطريقة التي اتبعها والنهج الذي انتهجه، مع الطريقة التي اتبعها والنهج الذي سار عليه ابن الأثير[*]، الذي عاصر فترة الغزو المغولي أيضا.[١]

جعل السنوى لكتابه مقدمة جاءت في خمس صفحات بدءها بالحمد والثناء على الله عز وجل وبالصلاة والسلام على رسوله ــ ρ ــ، وتحدث فيها عن الأسباب التي أدت إلى تأليفه هذا الكتاب عن السلطان جلال الدين منكبرتي وتحدث فيها أيضا عن بداية ظهور الدولة الخوارزمية ونهايتها إجمالاً، وختمها بقوله:[٢] "وعند الخوض في ذلك ــ أي في سيرة جلال الدين ــ لابد من تقديم مقدمة في شرح منشأ التتار ومبدأ خروجهم وبالله التوفيق ". كما جعل لكتابه خاتمة قال فيها:[٣] "الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، وبأمره قامت الأرض والسماوات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله بأفضل الصلوات وأكرم التحيات، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين". ولم يقسم النسوى كتابه إلى أبواب أو فصول أو عهود، بل جاء في عناوين بلغت نحو ١٠٩ عنواناً، كان أولها المقدمة التي جاءت بعنوان "بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن برحمتك"[٤] وآخرها "

---

[*] راجع موضوع مصادر النسوى فى هذا البحث وذلك لبيان السبب في فقدان النسوى لمكتبته الخاصة بما كانت تحويه من نفائس الكتب .

[*] من المؤرخين المسلمين الذين عاصروا أحداث الغزو المغولي ودونوها في مصنفاتهم ثلاثة، هم ابن الأثير في الكامل والجوزجاني في كتابه طبقات ناصري، والنسوي في ترجمته لسيرة جلال الدين منكبرتي. بارتولد : تركستان. ص١١٠ .

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٦. مقدمة التحقيق.

[٢] المصدر السابق : ص٣٧.

[٣] المصدر السابق : ص ٣٨٦.

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٣.

ذكر نُبذ من سيرة السلطان وصفته وتواقيعه وما خاطب به وخوطب من ذكر الخلافة وسائر الملوك"[١] وقد امتازت هذه العناوين بالطول والقصر، وإن غلب عليها الطول، فقد جاء بعضها في نحو سطرين أو ثلاثة أسطر، حيث بلغ عددها نحو ٦٢ عنواناً أي نحو ٥٧% من مجمل عناوين الكتاب، في حين بلغ عدد العناوين القصيرة التي لم تتجاوز السطر الواحد أو بعض الكلمات نحو ٤٧ عنواناً، أي ما يعادل نحو ٤٣% من مجمل عناوين الكتاب تقريباً.

من الأمثلة على العناوين القصيرة قول النسوى في إحداها[٢] "ذكر ملك السلطان أذربيجان" وقوله أيضا[٣]: "ذكر ملك السلطان خلاط"، ومن الأمثلة على العناوين الطويلة قول النسوي في إحداها:[٤] "ذكر نزول السلطان ببلد آمد[*] وعزمه على المسير إلى أصفهان ورجوعه عن ذلك الرأي بعد ورود رسول الملك المسعود صاحب آمد وكبس التتار إياه صباح ثاني يوم نزوله بها" وهو عنوان بلا شك طويل جداً، ويمكن إرجاع السبب في إطالة عناوين الكتاب عموماً إلى تزاحم الأحداث التي جرت للسلطان جلال الدين منكبرتى، حيث قضى حياته ــ خاصة بعد رجوعه من الهند ــ في حرب دائمة مع التتار، ومع جيرانه المسلمين، وأن أغلب هذه الأحداث كانت مجهولة للقارئ؛ لأنها ليست جزءاً من التاريخ الإسلامي العام، فأطال السنوى في عناوين الكتاب لتوصيل الأحداث إلى ذهن القارئ، ولشد انتباهه إلى أهمية ما يسرد تحتها من أحداث .

لم يقتصر السنوى في كتابه هذا على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتى، بل استهل كتابه بسرد حوادث المغول في وطنهم الأول، وتتبعهم إلى أن حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامي، ... لكن النسوى لم يشأ أن يتعمق في سرد حوادث الغزو المغولي للشرق الإسلامي، إذ اعتقد أن ذلك ما هو إلا تكرار لحوادث القتل والتخريب، ولذا فإن ما كتبه عن حوادث الغزو لا يغني عما كتبه ابن الأثير في هذا الميدان، بل يعتبر ما كتبه النسوى وما كتبه ابن الأثير يكمل أحدهما الآخر.[٥]

كان النسوى لحظة الغزو مقيماً بقصر أهله في خراسان فهو لم يلتحق بخدمة جلال الدين خوارزم شاه إلا بعد عودة الأخير من الهند عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ولكن حدث أن كان له

---

[١] المصدر السابق : ص ٣٨٤.

[٢] المصدر السابق : ص١٩٤.

[٣] المصدر السابق : ص ٣٢٠.

[٤] المصدر السابق : ص ٣٧٧.

[*] آمد : بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود ... وهي أعظم مدن ديار بكر ــ بالجمهورية التركية الآن ــ الحموى : معجم البلدان. جـ١ ص٥٦ .

[٥] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٥ ــ ٢٦. مقدمة التحقيق.

قبل هذا علاقة ما ببعض عمال دولة خوارزم لذا فإنه يروي عنهم وبألفاظهم في معظم الأحيان حكايات تتعلق بالأوضاع الداخلية والخارجية لدولة خوارزم. وله بالذات ندين بأوفى نصيب من الأخبار عن أحوال موطنه خراسان في ذلك العهد، غير أنه لا يولى اهتماماً كبيراً للأحداث العسكرية، بل يعالجها بإيجاز أكثر مما هو عليه الحال مع بقية المصادر.[١]

وقد تحدث النسوى في كتابه عن عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه والد جلال الدين وصراعه مع المغول حتى نهايته يقول بارتولد عن ذلك:[٢] " إنه من العسير إنكار أن النسوى كان على معرفة جيدة بأحداث الأعوام الأخيرة لحكم خوارزم شاه ". ولم يكن النسوى يركز على سيرة جلال الدين منكبرتي فقط من أبناء السلطان خوارزم شاه، بل كان يترجم لغيره منهم وكان يجعل لذلك عنواناً منفرداً، من ذلك قوله عن غياث الدين بيرشاه بن محمد خوارزم شاه[٣]: "ذكر نبذ من سيرة غياث الدين في الملك". وكان يتحدث أيضا عن رجال الدولة الخوارزمية من ذلك قولـــه ــ في عنوان منفرد أيضا[٤]: "ذكر نبذة من سيرة شرف الملك"[*]. كما كان النسوى يترجم للولاة مثل والي كرمان على عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه الذي يقول عنه[٥]: "ورد الخبر بموت مؤيد الملك قوام الدين والي كرمان ونائبه بها" ثم ترجم له ترجمة كاملة قال فيها[٦] "كان مؤيد الملك من جملة الرعاع رفعه السلطان ــ علاء الدين ــ وساعده الزمان حتى بلغ من رتبة الملوكية ما عز مناله. ومبدأ أمره أنه كان ابن داية ..." .

وكان النسوى لا يهمل الحديث عن الدولة الخوارزمية المنهارة في لحظة غياب السلاطين عنها، من هذا قوله عن استيلاء التتار على خوارزم سنة ٦١٧هـــ / ١٢٢٠م[٧]: "وقد خصصت حصارها بالذكر دون سائر البلاد لعظم أمرها ومبدأ احتفال التتار لها ... " .

ثم بدأ النسوى يفصل الحديث فيما يتفق وهدفه الأساسي ألا وهو الكلام عن الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها جلال الدين منكبرتي، فذكر كل شيء عنه تقريباً، وكان متعاطفاً معه ويكتب عن الأحداث الجسام التي تعرض لها مع التتار بحسرة وألم، من ذلك قوله

---

[١] بارتولد : تركستان. ص١١١.

[٢] المرجع السابق : ص٥٣٢.

[٣] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٨٠.

[٤] المصدر السابق : ص٣٦٧.

[*] هو الوزير شرف الملك على بن أبى القاسم الجندي المعروف بخواجه جهان. المصدر السابق : ص١٧٥. وانظر ترجمته بالكامل في المصدر السابق : ص ٣٦٧ .

[٥] المصدر السابق : ص٧٤.

[٦] المصدر السابق : نفس الصفحة.

[٧] المصدر السابق : ص١٧٠.

في أعقاب هزيمة جلال الدين من جنكيز خان[١] : " ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء نهر السند كسيراً رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى صوتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر. فأمر بهن فغرقن وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب ". وقوله أيضاً عن مقتل جلال الدين[٢]: "وكانت واقعته في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م فأعظم بها من مصيبة.. فحق للأفلاك أن تلبس ثواب الحداد، والنجوم أن تجلس فيها على الرماد ... فرحمه الله رحمة تبرد روحه ... وبكاء ينبئ عن حسن العهد والوفاء" وهذا أمر طبيعي منه لأن جلال الدين كان ولي نعمته .

وقد تحدث النسوى في كتابه هذا أيضاً عن نفسه وسجل مذكراته الشخصية[*] في تلك الفترة، وكان يجعل لذلك عنواناً خاصاً، من هذا قوله في أحد عناوين كتابه[٣]: "ذكر نظام الدين السمعاني وإقامته عندي بقلعتي خرندز مدة وخروجه منها في غير الوقت انزعاجاً".

هذا وقد بلغت عدد صفحات كتاب النسوى "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى" نحو ٣٥٤ صفحة. ما عدا مقدمة التحقيق.[*] وقامت الدراسة بحصر عدد صفحات الكتاب من حيث المادة التاريخية الواردة فيه حسب الموضوعات فجاءت على النحو الآتي:

- تحدث النسوى عن سيرة السلطان جلال الدين في نحو ١٦٩ صفحة تقريباً أي ما يعادل ٤٧,٧% من نسبة المادة التاريخية الواردة في الكتاب.
- وتحدث عن التتار في نحو ٣٢ صفحة بنسبة ٩% من مادة الكتاب التاريخية .
- وتحدث عن السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه والد جلال الدين في نحو ٤٨ صفحة بنسبة ١٣,٥% .
- وكتب عن موضوعات أخرى لها علاقة برجال الدولة الخوارزمية على عهدي جلال الدين ووالده علاء الدين خوارزم شاه في نحو ٧٧ صفحة بنسبة ٢١,٦% من مادة الكتاب التاريخية .

---

[١] السنوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٥٩.

[٢] المصدر السابق : ص٣٨٦.

[*] إن المواد الأساسية للمذكرات هي الملاحظات الشخصية واليوميات، ولعل عدداً من المسلمين البارزين في مجتمعهم كانوا يدونون ملاحظات شخصية عن أعمالهم، ولكن من المشكوك فيه وجود عدد كبير تجرأ على إيداع أفكاره الخاصة في يوميات منظمة يحتفظ بها. روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة د / صالح العلي , مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م. ص٢٣٨ .

[٣] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٢٣.

[*] بلغت مقدمة التحقيق نحو ٢٦ صفحة من صفحات الكتاب. لم يتحدث فيها المحقق عن النسوى وكتابه إلا في ٨ صفحات فقط، أما بقية صفحات المقدمة فهي عن الدولة الخوارزمية وصراعها مع المغول بوجه عام .

- كما تحدث النسوى عن نفسه في نحو ٢٨ صفحة بنسبة ٧,٩% من مادته التاريخية الواردة في الكتاب .

ويمكن أن نخرج من هذه الدراسة الإحصائية للمادة التاريخية الواردة في الكتاب بالملاحظات الآتية :

١ ــ أن النسوى ذكر في أكثر من موضع في كتابه أنه قد خصصه للحديث عن سيرة السلطان جلال الدين، إلا أن ما ورد في الكتاب من مادة تاريخية عن غير سيرة جلال الدين قد بلغ أكثر من نصف الكتاب [٥٢,٣%]، وهذا يعطي أهمية كبيرة للكتاب كمصدر مهم عن الدولة الخوارزمية والتتار، وليس عن سيرة جلال الدين منكبرتى وحده .

٢ ــ أنه على الرغم من أن حديث النسوى عن جلال الدين جاء أقل من نصف الكتاب، إلا أن هذا لا يقلل من أهميته ككتاب خاص عن سيرة جلال الدين، ولولا ما كتبه النسوى عنه لما عرفنا الكثير عن سيرة هذا السلطان، فهو كتاب فريد في بابه، على الأقل في سيرة جلال الدين .

٣ ــ أن ما ورد في الكتاب من مادة تاريخية عن غير سيرة جلال الدين، في أكثر من نصف الكتاب، يؤكد أن الاسم الحقيقي للكتاب هو سيرة الدولتين العلائية والجلالية وليس سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، كما هو مشهور عنه .

مصادر النسوى في كتابه سيرة السلطان جلال الدين

على الرغم من أن ما كتبه النسوى عن حياة السلطان جلال الدين منكبرتى، يعد من كتب السير والتراجم الخاصة التي لا تتجاوز إلا فترة يسيرة من الزمن، تتوقف عند مقتل هذا السلطان، إلا أن مصادر النسوى في كتابه هذا قد تعددت وتنوعت، بل كان النسوى لا يذكر في كتابه إلا الأحداث التي يعرفها فقط، وذلك إذا عجز عن تغطية هذه الأحداث من خلال مصادره المتعددة، وهذا يدل على أمانته العلمية، فمن هذا القبيل قول النسوى عن نهاية الملكة تركان خاتون:[١] "وأُسرت تركان خاتون، وحمُلت إلى جنكيز خان وأخبارها كانت تأتي جلال الدين في زمانه، ولست أدري ما فعل الزمان بها بعده".

هذا ويمكن إجمال مصادر النسوى في كتابه سيرة السلطان جلال الدين في النقاط الآتية :

١ ــ المعاصرة

لاشك أن معاصرة المؤرخ لأحداث زمانه تطبيع روايته التاريخية بطابع الصدق والدقة، فالمؤرخ الذي يعيش في زمن قريب من الزمن الذي دارت فيه الأحداث التي يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بألوانها الحقيقية، ذلك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة لزمن الأحداث تعتمد كثيراً على المعاينة والمشاهدة والسماع من مصادر متنوعة، والمعاينة والتحقق يجنبان المؤرخ الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها من لم يحذ حذوه، واعتمد على النقول ... وكما أن للمعاصرة فضل في الكشف عن الحقيقة التاريخية فإنها تكون في بعض الأحيان حجاباً يمنع المؤرخ عن تصوير الحقيقة، إما بسبب الرهبة من الحاكم، أو رغبة في التزلف إليه ومجاملته، فكثيراً ما يعمد المؤرخ إلى إخفاء بعض عيوب السلطان الحاكم خوفاً من بطشه أو درءاً لغضبه عليه إذا هو ــ أي المؤرخ ــ صرح بهذه العيوب، وقد يعمد إلى الإسراف في ذكر محاسنه وامتداحه. مصانعة له وتزلفاً إليه بغية الظفر بمنصب، أو بجائزة سنية.[٢]

كان النسوى معاصراً للكثير من الأحداث التي دونها في كتابه، لكن بما أنه قد دون سيرة جلال الدين بعد وفاته ــ كما ذكر آنفاً ــ فيمكن القول بأنه كان بمنأى عن عيوب المعاصرة المتمثلة في الرغبة والرهبة، أضف إلى ذلك أنه دون كتابه هذا في إقليم الشام ولم يكن للخوارزميين في وقت التدوين أدنى سلطان سياسي على بلاد الشام، بل كان ملكهم قد زال من الدنيا كلها بوفاة جلال الدين منكبرتى .

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٩٦.

[٢] د / السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية ١٩٩٧م. ص ١٢٤ ــ ١٢٥.

كان النسوى معاصراً للصراع بين التتار والسلطان علاء الدين خوارزم شاه والد جلال الدين، يقول النسوى عن فرار هذا السلطان من التتار[١]: "وكنت حينئذ بقلعتي المعروفة بخرندز ... فقد بقيت إذ ذاك والدنيا تموج بالفتن مهرباً للأسرى وملجأ للخائفين ... فكان أرباب الحشمة ... يهربون إليها حفاة عراة وأكسوهم بقدر الإمكان".

وكان النسوى معاصراً لجميع الأحداث التي تعرض إليها سيده جلال الدين خاصة بعدما التحق بخدمته، وهناك شواهد كثيرة في الكتاب تدل على ذلك، فمن هذا أنه أنهى إلى السلطان جلال الدين أن ثلاثة من أسرى الكُرج[*] ــ كان جلال الدين قد أسرهم ــ قد أحضرهم بعض رجال السلطان وقرروا فداءهم بعشرين ألف دينار، فقال النسوى عن هذا[٢]: "استحضرني السلطان وأمر أن لا يمكن أحد من إطلاقهم". ويقول أيضا عن وصول رسول من قبل الخليفة العباسي[**] إلى بلاط جلال الدين محمد بالهدايا[٣]: "وقد خصصت من سائر أرباب الديوان ببغلة شهباء جيدة وعشرون ثوباً " .

هذا ولم يكن النسوى معاصراً للأحداث التي دونها في كتابه فقط، بل كان يشارك مشاركة فعلية في هذه الأحداث، من ذلك قوله في بعض أحداث سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م[٤]: "واتفق أن السلطان وجهني إلى العراق في عدة مهام سيجيء شرحها فيما بعد " وقد شرحها بعد ذلك بالفعل. وكان النسوى يحضر المواقع الحربية أيضاً من ذلك قوله عن إحدى المعارك بين التتار والخوارزميين[٥]: "وقد حضرتها أيضا". ولعل أكبر دليل على أن المعاصرة كانت من أهم مصادره في كتابه، قوله عن أخريات أيام جلال الدين حين كان يفر من التتار، ومطاردتهم له:[٦]

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١١٦ ــ ١١٧.

[*] الكرج : جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق، وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس, الجمهورية الجورجية حاليا,. الحموي : معجم البلدان. جـ٣ ص٤٤٦ .

[٢] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ص٢١٤.

[**] كان من أسباب هلاك جلال الدين تقاعس الحكام المسلمين عنه، وعدم الاكتراث بحقيقة الخطر المغولي ... لكن علاقاته مع الخليفة العباسي المستنصر بالله قد تحسنت كثيراً وتبادل معه السفراء والرسائل الودية وجاءت وذهبت وفود سياسية بين الطرفين تحمل معها الهدايا ... إلا أن ذلك ولسوء حظ الأسرتين لم يكن إلا ظاهرياً. د/ سعيد الغامدي : أوضاع الدول الإسلامية في المشرق ــ كلية الآداب ــ جامعة الرياض ــ السعودية ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م. ص٣٥٧ .

[٣] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٠٩.

[٤] المصدر السابق : ص٣٢٦.

[٥] المصدر السابق : ص١٣٩.

[٦] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٥١.

"ولم يستصحب ــ أي السلطان ــ يومه ذلك من أبناء جنسي غيري" .

٢ ــ المشاهدة

أحياناً يكون المؤرخ معاصراً للأحداث، فتكون المعاصرة مفيدة له في تسجيل الأحداث، لكن إذا ما توفرت للمؤرخ المعاصرة والمشاهدة معاً، فإنه يصبح بهذا شاهد عيان للأحداث التي دونها، فيرفع هذا من مصداقية الكلام الذي أورده في كتابه. وقد توفر للنسوى هذا الأمر في كتابه الذي دونه عن سيرة جلال الدين، بل إنه يؤكد على أهمية ذلك بقوله[١]: "هأنذا مملى منها ــ أي من أخبار جلال الدين ــ ما شاهدته، أو سمعت ممن شاهده". ويقول أيضاً عن لقاء جلال الدين والتتار سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وقد دارت الدائرة على السلطان[٢]: "والتفت إذ ذاك وإذ بحامل الراية، وهي سنجقة[*] قد ولى منهزماً، فلحقه ــ السلطان ــ بطعنة أسلمته إلى قدر الأقدار".

ويقول عن آخر مرة شاهد فيها السلطان جلال الدين بعد أن هجم عليه التتار[٣]: "وكنت قد سهرت تلك الليلة للكتابة فغلبني النوم في أخرياتها، فلم أشعر إلا بالغلام ينبهني ويقول : قم فقد قامت القيامة فلبست سريعاً، ولما استويت على الفرس، رأيت أطلاب التتار وقد أحاطت بخركاة[**] السلطان وهو نائم" .

هذا إلى جانب غيرها من المواضع التي تدل على أن المشاهدة كانت مصدراً رئيسياً من مصادر النسوى التي اعتمد عليها في تدوين سيرة السلطان جلال الدين .

٣ ــ المشافهة

قد يستمد كاتب التراجم والسير معارفه عن طريق السماع، كما جرى عليه الشأن في كثير من كتب التراجم، فيتلقى المؤلف أخباره سامعاً من هذا، وناقلاً عن ذاك[٤]. فكانت المشافهة من المصادر التي اعتمد عليها النسوى في تدوين كتابه خاصة في ذكره للأحداث التي لم يرها ويشاهدها بنفسه، لأن الظروف كانت تحول بينه وبين ذلك، فعند حديثه مثلا عن بداية خروج التتار من موطنهم الأصلي، اعتمد في ذلك على المشافهة بالحديث مع الثقات من الناس، وذلك

---

[١] المصدر السابق : ص٣٥.

[٢] المصدر السابق : ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧.

[*] السنجق : لفظ تركي استعمل بمعنى العلم أو الراية أو الرمح أو اللواء. دهمان : معجم الألفاظ التاريخية. ص٩٣ .

[٣] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٧٨ ــ ٣٧٩.

[**] الخركاة : لفظ فارسي والجمع خركاوات، بمعنى الخيمة الكبيرة أو البيت من الخشب، يصنع على هيئة مخصوصة، ويغشى بالجوخ وغيره، ويحمل في السفر للمبيت. دهمان : معجم الألفاظ التاريخية. ص٦٧ .

[٤] محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير. ص٩٠.

لأن الفرصة لم تأته كي يذهب إلى بلادهم. فيقول عن ذلك[١]: "حدثني غير واحد ممن يعتبر قولهم أن ملك الصين ملك متسع" .

وكان النسوى يعتمد على المشافهة في كتابته عن سيرة السلطان علاء الدين خوارزم شاه والد جلال الدين، وذلك أمر طبيعي ؛ لأنه لم يلتحق بخدمة الخوارزميين إلا في عهد جلال الدين ــ رسمياً ــ فيقول عن الحرب بين الدولة الغورية وعلاء الدين خوارزم شاه[٢]: "وحكى لي من حضر الفجعة الفاضحة قال : كنا جلوساً عند ظهير الدين مسعود بن المنور الشاشي وزير السلطان بنسا، إذ أتاه آت ...". ولم يكن النسوى يستمد معلوماته بالمشافهة عن طريق الأفراد العاديين، بل عن طريق المقربين من السلطان علاء الدين خوارزم شاه. من هذا قول النسوى عن غزو السلطان علاء الدين لبغداد(**) [٣]: "وحكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي، وكان عند السلطان من ذوى الحظوة والاختصاص". وبما أن النسوى لم يكن مع السلطان محمد خوارزم شاه في الجزيرة(*) التي مات بها، فقد اعتمد في تدوينه لذلك الأمر على المشافهة أيضا، يقول عن ذلك[٤]: "وحدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب". وهذا يدل أيضا على أنه كان يستمد معلوماته من أشخاص متعددين كما هو واضح في عبارة "غير واحد". وذلك توثيقاً منه وتأكيداً على الخبر الصحيح .

كان النسوى يستمد معلوماته بالمشافهة أيضا عن آل خوارزم شاه الذين هلكوا قبل أن ينضم إلى خدمة جلال الدين، من ذلك قوله عن الملكة تركان خاتون والدة محمد خوارزم شاه ونهايتها[٥]: "وحدثني بدر الدين هلال الخادم، وكان من جملة خدامها ... قال : قلت لها : هلمي

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٨.

[٢] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٦٧.

[**] كان الفشل الأول والأكبر الذي منى به السلطان محمد علاء الدين ــ قبل أن يقضي عليه التتار ــ عندما طلب من الخليفة العباسي قراءة الخطبة باسمه في بغداد نفسها ... وبعث لهذا الغرض رسولا إلى بغداد في شخص القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي الذي حصل منه النسوى على تفاصيل ذلك. بارتولد: تركستان. ص٥٣٣ .

[٣] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٥٠.

[*] كانت الجزيرة التي اختفى بها السلطان تقع قريبة من بلدة آبسكون ... أي أنها لم تكن بعيدة عن مصب نهر جرجان. ولعلها هي الجزيرة المعروفة الآن باسم أشوراده، ووفقا لأقوال من كانوا في معيته، والذين تحدث إليهم النسوى فيما بعد، فإن السلطان عند بلوغه الجزيرة كان يقاسي من التهاب الرئة وأن حالته بلغت درجة من السوء لم يبق معها أمل في شفائه. بارتولد : تركستان. ص٦٠٣ .

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص١٠٦.

[٥] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٩٦.

نهرب إلى جلال الدين ولد ولدك ..." .

على الرغم من أن النسوى كان من أكبر المقربين إلى جلال الدين، إلا أنه كان يعتمد على المشافهة أيضاً في الحديث عن جلال الدين، خاصة في الفترة التي سبقت خدمته له. يقول النسوى عن هزيمة جلال الدين من جنكيز خان على حافة نهر السند سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م[١]: "وحدثني ضياء الملك عالي الدين محمد بن مودود العارضي النسوي ... قال : أهويت بنفسي إلى الماء ولم أعرف السباحة ما هي ..." ويقول عن فرار السلطان جلال الدين من التتار بعد أن هجموا عليه في خيمته وفارق النسوى خدمته[٢]: "وحدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان" وذلك عندما أراد أن يؤرخ لخاتمة السلطان، وحالت الظروف بينه وبين أن يجتمع به مرة أخرى. لم يتوقف أمر المشافهة عند النسوى عند هذا الحد، بل كان يكمل ما يجهله عن السلطان جلال الدين من أحداث، من خلال السلطان نفسه، يقول مؤكداً على ذلك[٣]: "كان جلال الدين يقول لي بعد علو شأنه، وتمكنه من سلطانه ..".

٤ ــ المؤلفات التاريخية السابقة

على الرغم من أن النسوى قد كتب عن سيده جلال الدين هذا الكتاب أي أن المدة الزمنية التي وردت بها الأحداث كانت قصيرة، وأن الكتاب أيضا ليس من كتب التاريخ الإسلامي العام التي يتحدث فيها المؤرخ من بدء الخليقة أو من السيرة النبوية حتى عهده، إلا أن النسوى اعتمد في كتابه هذا على المؤلفات التاريخية السابقة له .

فقد كان للنسوى شغف خاص بالكتب والمؤلفات العلمية تحدث عنه في كتابه هذا، يقول عن ذلك[٤]: "بني شهاب الدين[*] بخوارزم في جامع الشافعية دار كتب لم ير قبلها ولا بعدها مثلها ... ووقعت بعد مقتله بنسا في أيدي العوام والسوقة ــ بعض نفائسها ــ فكنت أتتبعها وأجمعها، وظفرت بعدة نفائس منها ... فخلفتها بما حويته من الموروث والمكتسب بالقلعة، ولم أتحسر مما خلفت بها إلا على الكتب".[*]

فمن باب اهتمام النسوي بنفائس الكتب كان من الطبيعي أن يهتم بالمؤلفات التاريخية

---

[١] المصدر السابق : ص ١٥٩.

[٢] المصدر السابق : ص ٣٧٩.

[٣] المصدر السابق : ص١٢٧.

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ص١١٠.

[*] هو شهاب الدين أبو سعد بن عمران، كان فقيها فاضلاً مبرزاً مفتيا في المذهب الشافعي. المصدر السابق : ص١٠٩ .

[*] يغلب على الظن أن كتب النسوى قد لقيت مصير ممتلكاته الأخرى التي ذهبت عند استيلاء غياث الدين بيرشاه على نسا، لما رفض الحاكم المحلي أن يعترف به سلطانا. بارتولد : تركستان. ص٦٠٧ .

السابقة له كمصدر من المصادر التي اعتمد عليها في كتابه، ولا عيب في ذلك عليه، طالما أن هذه المصادر ستكمل له ما نقص أو أبهم عليه من أحداث لم يستطع أن يكملها أو يفسرها من خلال مصادره المتعددة الأخرى، بل هذا يحسب له، ويدلل على دقته وأمانته العلمية .

ذكر النسوى في مقدمة كتابه صراحة أنه اعتمد على كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير. يقول عن ذلك[١]: "ورأيت الكامل من تأليف علي بن محمد ابن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، يتضمن من أحاديث الأمم عموماً، وغرائب أخبار العجم خصوصاً ما شذ عن غيره، وأنصف لعمري في تسميته كاملاً ما ألف .. ووجدته لم يفته من معظمات الأمور جليل، ولم يتجاوز الصحة إلا قليل، قلت : لله در مقيم بديار الشام، دعته همته إلى ضبط ما حدث من الوقائع بأعالي الصين، وأعماق ديار الهند". وذلك على الرغم من قصر المدة بين تاريخ وفاة جلال الدين ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وبين وفاة ابن الأثير ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وبين زمن تدوين النسوى لكتابه سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م .

لكن يبدو أن جل اعتماد النسوى على الكامل لابن الأثير في الفترة السابقة لخدمته لجلال الدين، خاصة عند حديثه عن عهد السلطان محمد خوارزم شاه والد جلال الدين، يقول مؤكداً على ذلك[٢]: "هذا ما شرحه ابن الأثير في كتابه المعروف بالكامل" وهذا عند حديث النسوى عن الترتيبات التي قام بها السلطان محمد خوارزم شاه قبل غزوه لبغداد، وحروبه مع الدولة الغورية. وكان يعتمد على ابن الأثير أيضاً في بعض الأحداث الخاصة بجلال الدين، يقول النسوى عن ذكر الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غياث الدين بيرشاه وما آل إليه أمره بعد مفارقة السلطان[٣]: "فخرج من خوارزم وبث عساكره في مظان مهاربه ... فاصطيد وأبيد على ما ذكره ابن الأثير في كتابه المسمى بالكامل".

ولا عجب في انبهار النسوى بالكامل لابن الأثير واعتماده عليه، فابن الأثير يعتبر من أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري ومؤلفاته التاريخية تبرز ذلك، ولعل من أهم ما أعطى التاريخ [الكامل] مكانة أن صاحبه تخير له المصادر ... وكان يلخص الأخبار أحسن تلخيص ويذكر أصح الروايات التي ارتضاها[٤]. فابن الأثير عاصر حوادث الغزو المغولي الأول بقيادة جنكيز خان الذي بدأت حوادثه سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٩م، واستمرت حتى سنة ٦٢٠ه/ ١٢٢٣م. فأرخ في كتابه "الكامل في التاريخ " للمسلمين في هذه الفترة والفترة التي تلتها حتى سنة

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٤ ــ ٣٥.

[٢] المصدر السابق : ٦٧.

[٣] المصدر السابق : ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠.

[٤] شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون. جـ٢ ص١١٢ ــ ١١٣.

٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وليس هناك من شك في أن ابن الأثير، رغم اختلافه بعض الشيء مع ما كتبه النسوى، يعتبر حجة فيما دون عن حوادث الغزو.[١]

ومن المصادر الأخرى المكتوبة التي اعتمد عليها النسوى ــ وإن كان في تقدير المسافات بين البلدان وليس في تسجيل الأحداث ــ كتاب المسالك والممالك[*]، يقول النسوى عن وصول جلال الدين منكبرتي إلى غزنة وبعد المسافة بينها وبين إقليم خوارزم[٢]: "ولعل من وقف على كتاب المسالك والممالك وعلم أن ما بين خوارزم وغزنة ــ والذى ثبت فيه عساكر جنكيز خان طالبة جلال الدين ــ من بعد شاسع ... وهل سمعت بجنود تواصلت مسيرة شهرين " أي أن النسوى أراد أن يؤكد على شجاعة السلطان عندما قطع المسافة بين إقليم خوارزم وغزنة في شهرين على الرغم من أنها تبلغ ٥٤ مرحلة.

غير أن النسوى لم يذكر من هو صاحب هذا الكتاب، فباب المسالك والممالك باب كبير، فقد وضع فيه الناس كتباً كثيرة ككتاب أبى عبيد البكري الأندلسي وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً، وكتاب ابن خرداذبه الفارسي وكتاب الفرغاني وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن والمستوعبة له.[٣]

وعلى الرغم من أن كتاب المسالك والممالك لأبى القاسم عبد الله بن خرداذبه الخرساني ذكر فيه أن الطريق من موضع كذا إلى موضع كذا مقداره من المسافة كذا[٤]. إلا أنه لم يذكر غزنة في كتابه مطلقا حتى نتمكن من تحديد المسافة بين غزنة وخوارزم. ومعرفة هل هو الكتاب المقصود الذي اعتمد عليه النسوى أم كتاب آخر .

٥ ــ الوثائق الرسمية

كان الموظفون من عمال الدواوين والكتاب ورجال البلاط، حتى الوزراء أكثر اطلاعاً من غيرهم على دخائل الأحداث، كما كانت تحت أيديهم محفوظات الدولة ووثائقها وكان بعضهم هو من صانعي تلك الأحداث وكتاب تلك الوثائق وكان في ذلك كله ما يغري الكثير منهم بكتابة التاريخ وخاصة في تلك الفترات التي عاشها الكاتب أو أتيح له الإطلاع على دخائلها. وإذا نجم عن ذلك تغيير واضح في أسلوب التاريخ وفي مادته وروحه إذا غاب فيه السند وكثرت فيه

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٣. مقدمة التحقيق.

[*] كان جعفر بن أحمد المروزى : هو أول من ألف في المسالك والممالك كتاباً، توفى بالأهواز سنة ٢٧٤هـ. ابن النديم: الفهرست ــ دار المعرفة ــ بيروت ١٩٧٨م. ص٢١٤ .

[٢] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين، ص١٣٤.

[٣] الحموي : معجم البلدان. جـ١ ص٣٤٦.

[٤] حاجي خليفة : كشف الظنون. جـ٢ ص١٦٦٥.

الوثائق، فقد أسهم ذلك في تكريس ظهور "التاريخ" كعلم للمعلومات العامة وأسهم خاصة في إعطائه الطابع المدني بدلاً من الطابع الديني.[١]

لم يكن النسوى بمثابة كاتب في ديوان الإنشاء على عهد جلال الدين فقط، بل كان بمثابة الكاتب الخاص للسلطان ومن أقرب المقربين إليه، وكانت تحت يد النسوى المئات، إذا لم تكن الآلاف من الوثائق الرسمية الخاصة بالدولة الخوارزمية من أوامر سلطانة ومراسلات مع القوى السياسية الأخرى المعاصرة لجلال الدين، وكثيراً ما كان النسوى يذكر في كتابه عبارة " وكتبت له ــ أي للسلطان ــ بذلك توقيعاً ". بل كان النسوى على دراية بالوثائق السرية الخاصة بالدولة الخوارزمية والتي ربما كان لا يعلمها إلا هو والسلطان فقط، من هذا القبيل قول النسوى في بعض المواضع:[٢] "ورد على السلطان كتاب من علاء الدين – علاء الدين كيقباذ – صاحب الروم يغريه بمعاداة بني أيوب، ويعده المساعدة عليهم ... فناولني السلطان الكتاب لأقرأه عليه، فلما وقفت عليه وجدته حديث خرافة ... وكان المجلس غاصاً بالخانات والأمراء قلت: هذا مما ليس يصح أن يقرأ بين يدي السلطان فألح في قراءته، وقال: ما عليك منه؟ قلت: إن كان لابد من قراءته ففي الخلوة، فخرج الناس وخلا المجلس ثم قرأته عليه فأخذه مني وختمه ووضعه في كيسه".

على الرغم من هذا الكم الهائل من الوثائق الرسمية السرية وغير السرية التي كانت تحت يد النسوى إلا أنه لم يورد مطلقاً في كتابه هذا الذي كتبه عن السلطان جلال الدين أي نص كامل لأي وثيقة من وثائق الدولة الخوارزمية، على الرغم من أن غيره من المؤرخين المعاصرين له كان يورد نص بعض الوثائق الخاصة بالدولة الخوارزمية مثل المؤرخ ابن نظيف الذي يقول عن رسالتي جلال الدين منكبرتي إلى حسام الدين خضر صاحب سرماري[*] سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م[٣]: "وهذه نسخة كتاب الخوارزمي الوارد إلى صاحب سرمارى وهو بالفارسية والعربية ترجمته: جلال الدنيا والدين أبو المظفر منكبرتي بن السلطان محمد بن تكش خوارزم شاه .."

فكان النسوى يورد بعض الوثائق مثل الرسائل، لكنها كانت مقتضبة، من ذلك قول

---

[١] شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤخرون جـ١ ص٢٧٦.

[٢] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٢٧٨ ــ ٢٧٩.

[*] سرمارى : قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط. الحموي : معجم البلدان جـ٣ ص٢١٥ .

[٣] ابن نظيف : التاريخ المنصوري. تحقيق د / أبو العيد داود. مطبعة الحجاز ــ دمشق ــ سوريا ١٩٨٢م. ص١٧٠.

النسوى عن رسالة جنكيزخان إلى السلطان علاء الدين خوارزم شاه[١]: "قالوا ــ أي رسل جنكيز خان ــ إن الخان الكبير يسلم عليك ويقول: ليس يخفى عليّ عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاد حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ... "وإذا كان النسوى قد أفاض في ذكر هذه الرسالة بعض الشيء، إلا أنه في بعض الأحيان يقتصر الرسالة في بضع كلمات، من ذلك قولــه[٢]: "ورد شخص يلقب بعماد الدين رسولاً بكتاب من وزير علاء الدين كيقباذ بن خسرو، وكانت رسالته تقتصر على إظهار الموالاة وتمهيد قواعد المصافاة".

غير أن الوثيقة الوحيدة التي أفاض فيها النسوى في كتابه هي رسالة السلطان جلال الدين منكبرتى إلى زعيم طائفة الإسماعيلية في آلموت سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م، والتي حملها إليه النسوى بنفسه، يقول عنها[٣]: "اجتمعت بعلاء الدين ــ زعيم الإسماعيلية ــ بعد ثلاثة أيام ليلاً في شاهق جبل وأوردت له الرسالة بما فيها من المخاشنة، وهي عدة فصول: منها التماس الخطبة على ما كان في زمان السلطان الكبير ... ومنها أن بدر الدين أحمد بعض أصحاب علاء الدين كان قد قصد التتار بما وراء النهر[*]، رسولاً منه ... ومنها مطالبتهم بما قد بقى من الإتاوة المقررة، وحملها إلى الخزانة من غير بخس". وعلى الرغم من أنه لم يورد النص الكامل لهذه الفصول من الرسالة، بل ذكر الحوار الذي دار بينه وبين زعيم الطائفة الإسماعيلية حول هذه الفصول الثلاث من الرسالة، إلا أنه في الوقت نفسه لم يذكر أي فصل آخر من فصول الرسالة، بل اكتفى بقوله[٤]: "وقد جرى في هذا المجلس فصول أخرى فيها زيادة محاققة ومخاشنة ولا حاجة إلى إعادتها" ولو أنه أعاد ذكرها في كتابه لكان أفضل، وذلك لأها كانت ستلقى المزيد من الضوء على العلاقات بين الدولة الخوارزمية وطائفة الإسماعيلية في ذلك الوقت.

هذا ويمكن إرجاع عدم ذكر النسوى لأي نص كامل من نصوص الوثائق الرسمية للدولة الخوارزمية في كتابه عن جلال الدين إلى الآتي:

١ــ أن الفترة التي خدم فيها النسوى السلطان جلال الدين كانت من أشد الفترات التاريخية اضطراباً في منطقة المشرق الإسلامي، فكان النسوى دائم التنقل وراء السلطان من مكان إلى آخر، لكثرة حروب وأعداء السلطان , فربما تكون هذه الوثائق فقدت منه عندما بدء

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٨٣ ــ ٨٤.

[٢] المصدر السابق : ص٢٦١.

[٣] المصدر السابق : ص٣٤٠ ــ ٣٤١.

[*] ما وراء النهر : يراد به ما وراء نهر جيجون بإقليم خراسان. الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص٤٥ .

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٣٤٢.

يدون كتابه، كما فقدت منه كتبه في قلعته خرندز كما ذكر آنفاً .

٢ ــ أن النسوى كان لا يورد نصوص الوثائق الرسمية للدولة الخوارزمية في كتابه هذا، لرغبته في عدم الإطالة والتركيز على أحداث حياة جلال الدين فقط دون مزايدات، وكان ينص على ذلك صراحة في بعض المواضع. يقول عن وصول رسول[*] من خليفة بغداد إلى جلال الدين[١]: "واستحضره السلطان، وكنت الترجمان بينهما، ولست أرى في إعادة ما أورده من الرسالة فائدة إلا الوحشة".

لكن على الرغم من أن النسوى كان لا يورد نصوصاً كاملة من الوثائق الرسمية لعهد جلال الدين إلا أنه كان يعتمد عليها أيضا كمصدر من مصادر كتابه، وكان يذكر مضمون هذه الوثائق فقط. من هذا قوله عن علاقة بعض رجال جلال الدين ببعضهم البعض وهما أورخان وشرف الملك[٢]: "وقد وقفت على عدة مكاتبات لأورخان إلى شرف الملك ... وكانت تنطوي مضامينها اللوم والتوبيخ والتخطئة والتخوين فيما هو بصدده من أمور الدولة وقضايا الملك".

من هذا العرض السابق لمصادر النسوى في كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي يتضح أنها مصادر أصلية أولية لها قيمتها في العملية التاريخية، إذ أن الكتاب بهذه الصورة ليس منقولا عمن سبقه من المؤرخين، وهذا يرفع من قيمته العلمية ويجعله في مقدمة المصادر التاريخية الهامة عن تاريخ التتار والدولة الخوارزمية عامة، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي خاصة .

الخاتمة

من خلال العرض السابق للبحث، يمكن أن نخلص بالنتائج الآتية : -

١ــ تبين من خلال البحث أن الاسم الحقيقي لكتاب النسوى هو (سيرة الدولتين العلائية والجلالية) وليس (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى) كما هو شائع عنه .

٢ــ أظهرت الدراسة أن العصر الذي عاش فيه النسوى قد سادته الفوضى والإضطرابات، التي نتجت عن ظهور التتار على مسرح الأحداث التاريخية، وقد انعكست هذه الأحداث على النسوى في مادته التاريخية

٣ــ اتضح أن النسوى كتب كتابه هذا بعد وفاة جلال الدين منكبرتي بنحو أحد عشر عاماً. ولهذا الأمر أهميته فى الحكم على قيمة الكتاب كمصدر تاريخي، حيث تحرر المؤلف إلى حد

---

[*] على الرغم من هذا فإن النسوى قد أخفق في إعطاء معلومات عن هذا الرسول أو عن مهمته د / سعيد الغامدي : أوضاع الدول الإسلامية. ص١٥٠ .

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص ٢٢٠.

[٢] المصدر السابق : ص٢٠٦.

ملحوظ ــ رغم ولائه لمن سرد حياته ــ من قيود الكتابة التاريخية المتمثلة في عاملي الرغبة والرهبة .

٤ــ أظهرت الدراسة أن النسوى له كتاب آخر يحمل اسم (نفثة المصدور) كتبه باللغة الفارسية، يتحدث عن نفس الأحداث التي أوردها في كتابه (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى) الذي دونه باللغة العربية. وربما تكون إعادة تدوينه لنفس الأحداث باللغة العربية ترجع إلى إحساسه بضياع كتابه الذي دونه باللغة الفارسية بسبب الاضطرابات التي سادت عصره، أو إلى استقراره في أخريات أيامه في بلاد الشام ذات اللسان العربي.

٥ــ اتضح من الدراسة أن النسوى قد تعددت مصادره في كتابه، فكان منها المعاصرة والمشاهدة والمشافهة، كما اعتمد على المؤلفات السابقة له، ككتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، واعتمد كذلك على الوثائق الرسمية، وكلها مصادر أصلية وهامة في العملية التاريخية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية والمعربة

ابن الأثير : على بن أبى الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير. ت ٦٣٠هـ

(١) الكامل في التاريخ, دار صادر, بيروت ١٩٨٢م.

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى. ت ٨٧٤هـ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٢م .

الجويني : عطا ملك الجويني. ت ٦٨١هـ .

(٣) تاريخ فاتح العالم. نقله عن الفارسية د / محمد التونجي ـ دار الملاح ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة. ت١٠٦٧هـ.

(٤) كشف الظنون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٢م .

الحموى : ياقوت الحموى. ت ٦٢٦هـ .

(٥) معجم البلدان ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٧٩م.

ابن حوقل : أبو القاسم ابن حوقل النصيبي.

(٦) صورة الأرض ـ مطبعة بريل ـ ليدن ـ هولندا ١٩٣٨م .

الدوادار : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار. ت ٧٣٣هـ

(٧) كنز الدرر وجامع الغرر. المعهد الألماني للآثار ـ القاهرة ١٩٧٢م .

أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة. ت ٦٦٥هـ .

(٨) نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية. تحقيق د / سهيل زكار ـ دار رغداء ـ دمشق ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل أبو الفداء. ت ٧٣٢هـ .

(٩) المختصر في أخبار البشر ـ المكتبة الحسينية المصرية ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور. ت ٧١١هـ .

(١٠) لسان العرب. دار صادر ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع .

المقريزي : أحمد بن علي المقريزي. ت ٨٤٥هـ .

(١١) السلوك بمعرفة دول الملوك. تحقيق د / محمد مصطفى زيادة ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٥٦م .

ابن النديم : محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم. ت ٣٨٥هـ .

(١٢) الفهرست ــ دار المعرفة ــ بيروت ١٩٧٨م.

النسوى : محمد بن أحمد بن علي النسوى. ت ٦٤٧هـ .

(١٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي. تحقيق د / حافظ حمدي .دار الفكر العربي ــ القاهرة ١٩٥٣م .

ابن نظيف : محمد بن على بن نظيف .

(١٤) الكشف والبيان في حوادث الزمان المعروف بالتاريخ المنصوري. تحقيق د / أبو العيد داود, مطبعة الحجاز , دمشق ١٩٨٢م .

النويري : أحمد بن عبد الوهاب النويري. ت ٧٣٣هـ.

(١٥) نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق د / سعيد عاشور, الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .

ثانياً : المصادر الفارسية

زيدرى نسوى : شهاب الدين محمد خررندى زيدري نسوى. ت ٦٤٧هـ .

(١) نفثه المصدور. الناشر. توس ــ طهران ــ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة

إقبال : عباس إقبال .

(١) تاريخ المغول من حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية. ترجمة د / عبد الوهاب علوب ــ المجمع الثقافي ــ الإمارات العربية ٢٠٠٠م .

إكيتشانوف : ى. إكيتشانوف .

(٢) حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم. ترجمة د / طلحة الطيب ــ مركز الماجد للتراث ــ دبى ــ الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٥م .

بارتولد : فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد .

(٣) تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. ترجمة / صلاح الدين هاشم ــ ط ــ المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت١٩٨١م.

البقلى : محمد قنديل البقلى .

(٤) التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .

حسن : محمد عبد الغني حسن .

(٥) التراجم والسير ــ دار المعارف ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٠م .

حمدى : د / حافظ حمدى .

(٦) الدولة الخوارزمية والمغول. دار النهضة العربية ــ بيروت١٩٧٠م .

خضر : عبد العليم خضر .

(٧) المسلمون وكتابة التاريخ. المعهد العالمي للفكر الإسلامي ــ فيرجينيا ــ الولايات المتحدة الأمريكية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

دهمان : محمد دهمان .

(٨) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ــ دار الفكر ــ دمشق ١٩٩٠م .

روزنثال : فرانز روزنثال.

(٩) علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة د / صالح العلى , مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

سالم : د / السيد عبد العزيز سالم .

(١٠) التاريخ والمؤرخون العرب. مؤسسة شباب الجامعة ــ الإسكندرية ١٩٩٧م .

الصياد : د / فؤاد عبد المعطي الصياد .

(١١) المغول في التاريخ ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع

العقيقي : نجيب العقيقي .

(١٢) المستشرقون ــ دار المعارف ــ الطبعة الرابعة ــ لم تذكر سنة الطبع

الغامدى : سعيد الغامدى .

(١٣) أوضاع الدول الإسلامية في المشرق ــ كلية الآداب ــ جامعة الرياض ــ السعودية ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م .

الفقى : عصام الدين الفقى .

(١٤) الدول المستقلة في المشرق الإسلامية ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة ١٩٩٩م .

مؤنس : حسين مؤنس .

(١٥) أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام ــ القاهرة ١٩٨٧م .

مصطفى : شاكر مصطفى .

(١٦) التاريخ العربي والمؤرخون ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٩م .

نخبة من العلماء : نخبة من العلماء .

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع .

رابعاً : الدوريات

مجلة الثقافة العالمية: دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة ــ دولة الكويت.